ليلة واحدة تكفي

A NIGHT IS ENOUGH

ليلة واحدة تكفي (رواية)

قاسم توفيق

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-502-0

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2022/4/2167)

813.03

"الحاج أحمد" قاسم محمد توفيق

ليلة واحدة تكفي/ قاسم محمد توفيق "الحاج أحمد". عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(188) ص

ر. إ: 2167/ 4/ 2022

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

قاسم توفيق

ليلة واحدة تكفي

A NIGHT IS ENOUGH

رواية

مقدمة مع الحب إلى الصديق الأعز، كمال البكري

Dedicated to my Ioyal, great friend kamal Bakri

«لقد عبرت البشرية طوال آلاف السنين بوّابة البحث عن معنى وجودها، كل واحد من البشر عرف الإجابة عن هذا السؤال الذي يُقال إنه حيّر العلماء، لكن لم يبح به لأحد، بل صار يعيشه».

الفصل الأول

«**اطفي الضَو**»..

لا تكفهرُّ سماء عمّان، إلّا إذا هُزَّت أركانُها.

قَبْلَ الظهيرة بقليل سَطَت الطائرات على سماء عمّان، ألقت على الأرض قنابل دكَّت المطار، ومبنى الإذاعة، ثم عادت واختَفَت في الأفق الغربيّ مخلّفة وراءها دخانًا أسود وخوفًا عميقًا. انقشع الدخان مع نسائم الصيف الخفيفة، أمّا الخوف فقد حطَّ رحاله واستوطن، وجعل سماء عمّان مكفهرَّة إلى اليوم.

في ذلك الوقت كانت وجدان الممرضة ذات القوام الجميل، والوجه المشرق، والعينين الخضراوين تقف قريبًا من الطبيب الذي كان يسحب بيدين مرتجفتين أوَّل مواليد المستشفى في يوم الخامس من حزيران 67. تلقَّفت بحذر قطعة اللحم الغرقى بالسوائل والدم من الطبيب المتعجِّل بالرَّحيل، قلبّتْها رأسًا على عقب، طَرَقَت برفق على إلية أصغر من كفِّها، فانفجر صاحبها بالبكاء. تعجَّل الطبيب في غسل يديه والانصراف دون أن يلقي نظرة اطمئنان على الأم الغائبة في ملكوت السلام.

ودون أن تلقي نظرتها الاحتفاليّة المعتادة على المولود الجديد، قامت وجدان بقطع حبله السريّ، عقدته ولقمته البطن الصغيرة، مسحته بقطع قماش نظيفة، وبحركة متدرِّبة رفعت كتلة اللحم اللزجة الطريّة التي كانت تحاول التملُّص والهرب من الدثار الذي يحيط بها، لتريه لِمَن جلبتْهُ إلى

الدنيا؛ أمه، لكنها تذكَّرت أنها ليست حاضرة لتكمل طقوس حضور مولودها. كان البنج قد حملها إلى عوالم غيبيّة لا يشاركها فيها أحد، ولا حتى هذا الذي عَبَرَ من بين فخذيها وابتدأ في احتلال حصَّته على الأرض.

ناولته للممرضة الموكل إليها مهمّة استكمال مراسم دخول الضيف الجديد إلى الدنيا. غادرت وجدان غرفة العمليات دون أن تنبعث من بين شفتيها ابتسامتها المعتادة التي كانت تبارك فيها الحضور الأوَّل للزائرين الجُدُد إلى الحياة.

لم يكن يبدو عليها التوتُّر مثل رفاق غرفة الولادة الذين كانوا ينتفضون مع صدى أصوات الانفجارات التي تنبعث من مناطق قريبة وكأنَّها تدوّي على سطح المستشفى. شعرت براحة ماكرة عندما تأكَّدَت أنَّ الأم ما تزال مستغرقة في نومها الاصطناعيّ. لم تكن لديها الرّغبة في المجاملة الضروريّة، ولا في الكلام عن جمال مخلوق لم تظهر ملامحه بعد.

اغتسلت، بدَّلَت ملابسها، وغادرت مكان عملها. فاجأتها الشوارع المُقفرة. الطريق إلى «جبل القصور» طويل، يثقل على أنفاسها إجهادٌ غريب. استنكَرَت فكرة أنها تعجَّلت مغادرة المستشفى دون أن تسأل عمّا يجري لِعمّان، أو أن تفهم شيئًا ممّا يتناقله العاملون معها عن الحرب التي اندلعت هذا الصباح. «أيُّ حرب هذه؟ ومَن هُم أولئك الذين يحتربون في عمّان؟ صوت هتافات الرجال الفرحين التي كانت تنطلق من غرف الممرضين، تصفيقهم وتهليلهم، هو الذي دفعها للهرب، لو أنها تريَّثت

قليلًا لعَدَلت عن فكرة الإسراع في ختْم بطاقة الدَّوام ولباتت للَيلة ثانية في المستشفى:

- عشرون طائرة.
- ثمانٍ وعشرون طائرة.
- .....
- خمسون طائرة.
- الله أكبر.

لقد سمعَت أصوات الانفجارات، ورأت الخوف في عينيّ الطبيب المتعجِّل في إخراج الجنين من رحم أمِّه، وفي وجوه الممرِّضات، وعاملات النظافة، ورغم كل ذلك تعجَّلَت الرَّحيل؟

خطوات قليلة تلك التي قطَعَتْها لتضعها على الدوّار الثالث الفارغ الهادئ على غير طبيعته؛ مشوارها اليومي العادي الذي تقطعه ذهابًا وإيابًا في كل مرَّة قادمة من وسط البلد، أو عائدة إليه. ما يزال الوقت مبكِّرًا على قدوم العتمة، إلّا أنَّ الدخان الذي عبَّأ الفضاء كان وكأنَّهُ يحاول التَّعجيل في حضورها. أحسَّت بوجود حياةٍ في واحد من المحلّات التي تحيط بالدوّار، شدَّت خطاها إلى هناك.

الـ«ريفيرا سناك».

لم تكن تتخيَّل أنْ يكون هذا المكان هو الوحيد الّذي ما يزال فاتحًا أبوابه للزَّبائن. أمس فقط فكَّرَت في أنْ تتخلّى عن ارتياده، وأنْ تبدِّل به البار الجديد الّذي افتُتح مؤخَّرًا قُبالة السَّفارة الأميركيّة وسمّاه صاحبه

الذكي «أونكل سام»! على الرَّغم من أنَّ «الريفيرا» هو المكان الّذي ترتاحُ فيه، وتألفُ العامل اللَّبق الّذي يديره، لكنَّه صار أكثر صَخَبًا بسبب حركة السيّارات والمحلّات والزَّبائن. لم تعرف الـ«أونكل سام»، افترضَت أنَّه مطعم خاصٌّ بعُمّال السَّفارة. دخلَتْه رغبةً في أن تعرف ما الّذي يُخفيه خلف الزُّجاج المُظلَّل المُعتِم. وجدت مكانًا ضيِّقًا تشغل طاولة مرصوفة بكراسيَّ عالية الحيِّز الأكبر منه، شدَّها هدوؤه وقلَّة مرتاديه، لكنَّها لم تقرّر الهجرة إليه، فقد كان للـ«ريفيرا» في نفسها مكانة ما لا تعرف أن تصفها؛ هل هي العادة وهي الّتي تخاف التغيير؟ أم الألفة الّتي تُشعرها بأنَّها في بيتها أو في الشّقة المهجورة الّتي ما زالت تحمل مفتاحها في حقيبتها؟ أم لهاجسٍ مسَّها ولم تعد تتذكَّره؛ أنَّها سوف تعيش هنا ليلةً تُعادل عمرَها كلَّه؟

لم يدُر في خاطرها وهي تغادر المستشفى فكرة أنْ تتوقَّف في أيّ مكان لا للشرب ولا للأكل؛ كل ما كانت تريد عمله أنْ تصل إلى البيت، وتطمئنَّ على أمِّها، وعندما لم يلفت انتباهها سوى الحركة التي تخرج من «الريفيرا»، أجَّلت مشروعها إلى أن تعود الحركة للشوارع، وتجد وسيلة تنقلها إلى وسط البلد.

دفعت الباب المشقوق بحماسة، لترى عامل البار ذيب منهمكًا بغسْل وفرْك يديه بشدَّة وكأنَّهُ يحاول إخفاء آثار جريمة انتهى من ارتكابها للتوّ. لم ينتبه لحضورها، نادَت باسمِه بصوتٍ طغى على صوت الراديو الضاجّ بأغنياتٍ غاضبة. انتفض متفاجئًا عندما تنبَّه لوجودها:

- «ماذا تفعلين هنا؟» صَرَخَ يسألها.

أجابَتْهُ بدرجة الصوت العالية ذاتها:

- أنتَ ماذا تفعل هنا؟

رفع كفَّيْه، كان لونهما قد تحوَّل إلى الأزرق الغامق:

- أغسلُ يديّ من أثر «النيلة».

- بابكَ الوحيد المُشرع، لماذا لستَ في البيت؟

«أنا في البيت»، ردّ عليها وهو ما زال منهمكًا بفرك يديه بالصابون، قال: «أنفِّذ تعليمات الدفاع المدني؛ أدهنُ النوافذ بالأزرق فلربما صارت جدارًا مضادًا للطائرات».

رائحة مألوفة كانت تطغى على المكان. تعرفها وجدان جيدًا؛ رائحة مبيِّض الملابس المتَّسخة؛ «نيلة» الغسيل، العلاج الناجع لتنظيف ملابسها من آثار البنج والعرق. غيَّبَ عبقُها الرائحة التي تُحب هنا؛ خليط رائحة الخمور والسجائر وعرق الرجال.

انتهى من غسْل يديه، نشَّفهما بكومة من الورق القريبة من المغسلة، خفَّض صوت الراديو قليلًا، نظر فيها مستغربًا:

- لماذا تركتِ المستشفى؟

- «عطشتُ لكأس بيرة» ردَّت بسخرية.

صارت ملامحه أكثر جديّة، عاد وسألها وكأنَّهُ معنيٌّ بأمرها كثيرًا:

- مَن يجرؤ على الخروج؟ الشرطة تدعو الناس للاختباء في الملاجئ.

- أنهيتُ مناوبتي للتوّ، ويجب أن أعود إلى البيت.

فاجأه ردُّها وبدا كأنَّهُ لم يفهمه.

- بيتكِ قريب؟
- بعيد. ما بكَ تكثر من الأسئلة؟ اسكب لي كأسًا.
- كيف تفكِّرين بالعودة إلى البيت، قريبًا كان أو بعيدًا؟ الأسلم أن تعودي للمستشفى.
- مللت، أشعر برغبة في التغيير.

«الريفيرا سناك» حانة لا تهدر الوقت، لم يسبق لوجدان أنْ قصدتها ولم تجد ذيب في استقبالها، لا بدّ أنه قد قيَّدها في ذاكرته كزبونة دائمة. مع تكرار حضورها، كانت ترى أنه دائم الوجود، لم يحدث أن تغيَّب ولا مرّة واحدة. في كل مرّة تأتي بها إلى هنا، تعيد التفكير بما افتَرَضَته مسبقًا من أنَّ حياته لا تتعدّى هذه البقعة الصغيرة من الأرض، لم يصدف أنْ شاهدتهُ يتجاوز البوّابة العريضة إلى الشارع، كان يوكل مهمّة تجاوُز حدود الباب للشاب الصغير الذي يعاونه. يظلُّ هذا المعاون مختفيًا طوال الوقت وراء البار، لا يعلن عن وجوده غير صوت الكؤوس والصحون، وطشيش الماء، أو عندما يطلب منه ذيب أنْ يجلبَ شيئًا ما مِن البقّالة المجاورة، أو إخراج الزبالة.

فكَّرت بأنَّ ذيب كائنٌ مكانيٌّ، تحدُّه جدران حانته من الجهات الأربع، إنْ تجاوَزَها أو خطت قدماه خارجها؛ قتلته الشمس، أو قتله الهواء. ما

كانت تعرفه أنَّ «الريفيرا» مكان عمله، الآن صارت تعرف أنَّها بيتُه وعالمُه أيضًا.

أشار عليها أنْ تجلس، قدَّم لها طلبها، وسكب لنفسه نصف كأس. جلس إلى طاولة قريبة منها، رفع لها الكأس بيده: «بصحتك». ردَّت له التحيّة. كرعت جرعة طويلة برَّدَت الحرارة التي تحسُّ بها، أخذ هو يعبُّ من كأسه بطرف لسانه دون أن يفكِّر بقول شيء.

لم يسبق لأحد من زبائن ذيب أن رآه يحتسي جرعة بيرة، أو شحطة ويسكي أثناء عمله، حتى إنَّهُ كان يعتذر بأدب جمّ لِمَن يدعونه لمشاركتهم نخبًا، ولا حتى من باب المجاملة. أكثر زبائن «الريفيرا» يعدّون ذيب صديقًا لهم، على عكس ما يعنونه هم له، فهم ليسوا سوى زبائن الخمّارة التي تضمَّنها من صاحبها من يوم فُتحَت بوّابتها، خبرته الطويلة بالعمل في هذه المهنة علَّمَته أن لا صداقة مع الزبون، لأنَّ الزبون لا يصادق خادمه، يفهم أنَّهُ إنْ حاول أنْ يتمرَّد على هذه القاعدة، وعلى صفته ساقيًا، وتحوَّل إلى شخصيّته الطبيعيّة؛ فإنَّ المحلّ سيفقد كلّ زبائنه.

العمل في خمّارة في عمّان يعني اليقظة التامّة، والمعرفة العميقة بنفوس البشر. تجاربه الكثيرة عرَّفته بأنَّ الإنسان ليس ذاتًا واحدةً، بل هو ذوات كثيرة، بعضها يتكشَّف من لحظة دفْعِه الباب، وبعضها الآخر يتلكَّأ بعض الوقت. مَن يرتادون الحانة هم الصِّنف السَّهل التعرُّف عليه مِن «بارتندر» خبير قبْل الجرعة الأولى، مِن لحظة طلبهم للمشروب الذي يرغبون فيه.

لقد مرّن ذيب عقله منذ سنوات على المراقبة، والاستماع، فضعفت قدرته على الكلام أكثر.

هذه هي المرَّة الأولى التي تراه فيها زبونته العتيقة وهو يبلِّل شفتيه برغاء مشروبها المفضَّل؛ البيرة، أخفت دهشتها الرَّقيقة وقرَّرَت أنْ لا تبدأ حوارًا حول مسألة طارئة، لا يُفترض أن تكون غريبة، مثل هذه اللحظة الموجزة، والمتألِّقة لا يليق الحديث بها لمجرَّد الرَّغبة في إشباع فضولٍ ساذجٍ.

شَعَرَت بأنَّ في جعبة نديمها أشياء جديدة أكثر تشويقًا، سوف تكشف عن نفسها طواعيةً ودون أنْ تسأل هي عنها، فهذا المُنهمك، القلق، المُنشغل في متابعة الأخبار بصمت الوحيد، لا بدَّ وأنَّه صار ظمِئًا للكلام. الساقي قليل الكلام، لا بدَّ أنَّهُ سوف يتكلّم اليوم، لا بدَّ أنه يفتِّش عن خَلاصٍ للسانِه الذي يبُس مثل لسانها من الصَّمت العميق.

بالكاد كانت تسمع صوت ذيب وهو يلقي عليها كلمة الترحيب التقليديّة القصيرة «أهلًا»، أو يستعيض عنها بابتسامة من بعيد. لم تعرف صوته إلّا اليوم، فـ«أهلًا» أو «بصحتك»، التي تتحوَّل لتصبح CHEERS للزبون الأجنبي، لازمة يكرِّرها كلّما دنا من الطاولات ليقدِّم الشَّراب الذي يطلبونه. كلمتان لا تتركان في أذن مَن يسمعهما صدى لِما تخفيانه وراءهما من أسرار في نفس مَن يلقي بهما على الطاولات كلها. ها قد لاحت اللحظة التي سوف يُسمعها بها صوته حتى تملّ منه، إنْ لم تكن الحرب قد لَجَمَت لسانه إلى الأبد.

فوجئ بتجنُّبها الكلام عن حدث كبير يشغل الناس كلّهم، فكلّما حاول أنْ يعلِّق على خبر ينقله المذيع كانت تصدّه وتطلب منه أن يتكلّم بأمر آخر. أخبرته مباشرة بأنّها ليست معنيّة بأنْ تعرف شيئًا عن الحرب، لأنَّ ذلك لن يضيف جديدًا، أفضَت له بما كانت تفكِّر فيه، قالت:

«إنَّ الكلام لن يغيِّر شيئًا من حقيقة ما يجري»، ثم وكأنَّها تستجمع أنفاسها، أكملت بصوتٍ خافتٍ: «التفاصيل الصغيرة لا تصنع فوارق في الأحداث الكبيرة».

ابتَسَمَت وهي تقول بصوت مرتفع قليلًا، مُحاوِلةً أنْ تفرض رأيها بعدم الخوض في الحديث عن الحرب:

- ظننتُ أنَّكَ أخرس، لأكتشفَ أنَّكَ ثرثارٌ وتحبُّ الكلام.

***

مناوَبَتُها ليلة أمس كانت طويلة. بقيت مشغولة كل الوقت برعاية الوالدات والحوامل اللواتي ينتظرن الولادة. لم تُتِح لها أوجاعهنّ، ولا البكاء الذي كُنّ يتناوبن عليه، أنْ تستعملَ ساعة الرّاحة التي تستعيد فيها التقاطَ أنفاسِها بعددٍ من السجائر وكأسين من القهوة.

ظلَّت طوال ليلة الخامس من حزيران منهمكة بعملها الذي كان آخره المولود الذي لم تَرَه أمُّه بعد، والذي قرَّر أنْ يجيء إلى عمّان بعد أنْ أطمأنَّ إلى أنَّ طائرات العدو قد أنجزت مهمّتها وانسَحَبَت من السماء بأمان.

لـم تكُـن وجـدان متحمِّسـة لأنْ يثقـل عليهـا «البارتنـدر» الـذي لفـت انتباهها أنَّهُ يتتبَّع الصوت المنبعث من الراديـو باهتمـام كبيـر. أوشـكت أنْ تيأس وأنْ تفقد الأمل بأن يهتمّ بهـا. صـارت شـبه متيقِّنـة بأنَّـهُ لـن يشـاركها الشراب، ولا الحديث. قالت محاولةً أنْ يعيرها بعض الانتباه:

- الناس في المستشفى فزعة، الشوارع مقفرة، وأنـتَ تطلي زجاجـكَ بمبيِّض الغسيل، ما الذي قلب الدنيا علـى رأسـها فجـأة؟ هـل فعـلًا هي الحرب؟

«من غير المعقول أنكِ لم تسمعي عن عدد الطـائرات التي أسـقطناها للعدو؟» ردّ بحماسة وأكمـل: «أجـل إنَّهـا الحـرب؛ حـرب فعليّـة سـتكون فيها نهاية الاحتلال».

فزَّ واقفًا مهتمًّا وكأنَّهُ نسي شـيئًا مـا، مضـى صـوْب الراديـو الـذي كـان يبعث بأصوات مُبهمة، أدار مفتاح الصوت، انفجرت الأغنيات الحماسيّة من جديد، لم تكن تشبه تلك التي اعتادت وجـدان سـماعها، فلـم يصـدح صـوت شـادية النـاعم المغنـاج، ولا صـوت فـايزة أحمـد، أو عبـدالحليم حـافظ، بأغنيـاتهم الرومانسـيّة الناعمـة، ولـم تسـمع المعزوفـة التي كانـت تُعزف في كل مرَّة قرَّرت فيها أنْ تغيِّر من طعام المستشفى المـائع وتتنـاول غـداءها هنـا. تلـك الموسـيقى التي كانـت تسـمّيها لعبـة «البارتنـدر»؛ فقـد جَعَلَها لازمة فترة الغداء وكأنَّها السَّلام الرَّسمي للأكل.

قُطعت الأغنية التي كانـت تتغنّـى بأمجـاد العـرب، لتنطلـق بعـدها نـبرة صـوت أجـشّ، خشـن ثقيـل يغنّـي مرحِّبًـا بالمعـارك، ليتبعـه دون انقطـاع

صوت مغنٍّ يشيد بالمدرَّعات، وعبدالحليم يُهلّي بالمعارك. إلى أنْ سكتت فجأة الأغنيات التي كانت تتلاحق مثل الرَّصاص، وانطلق صوت مذيع يعلن بلاغًا عسكريًّا جديدًا، وذيب متمسمرًا يتابع بكل جوارحه جوقة الأغنيات التي كانت تشحنه بعزيمة عظيمة، ويترقَّب البلاغ العسكري الجديد، دون أن يكفّ عن الكلام بأمور لم تفهم الزائرة معناها، أو أنها لم تكن ترغب في فهمها.

تخيَّلَت وجدان الرجل صاحب الصوت الغاضب، المنبعث من الراديو، وكأنَّهُ يعتلي صهوة حصانه، شاهرًا سيفه عاليًا في كبد السماء، ويدعو جنوده للقتال، والموت.

ما إن انتهى المذيع المحارب مِن عدِّ الطائرات التي سقطت للعدو، حتى جاء «محمد عبدالوهاب» يشدو ببرود «دعاء الشرق»، تذكَّرَت تلك القصيدة وشاعرها «محمود إسماعيل»، فقد أُجبِرَت في المدرسة على حفظها غيبًا لتجني علامة درس الأناشيد.

فكَّرَت بأنها قصيدة دعاء هادئ لا يليق بالحرب، ولا هو متناغم مع الأغنيات التي كانت تضجُّ بها الصالة. لم ترغب في أنْ تُقصي الرجل المهتمّ الذي لم تَرَ منه تلك النظرة التي يرمقها بها عادةً عندما تدخل المكان وتبدأ في تحرير شعرها المعقود كل الوقت تحت قلنسوة الممرِّضة:

- الأدعية لا تجدي نفعًا في المعركة. أغنية مثل هذه لن يطيقها جندي يُطلَق عليه الرصاص، أو يختبئ في ملجأ هربًا من القصف. أيّ

محارب هذا الذي يجد الوقت لفتح الراديو وتشنيف أذنيه لسماع أغنية حتى لو كانت مغنّاة من أجلِه هو شخصيًّا؟ كيف له أنْ يفهم معنى أيّ كلام يسمعه وهو متكوِّم في خندق لا يحسُّ بشيء سوى الخوف، ويبعد خطوات عن رفيق مقتول، أو جريح يئنّ؟

- هذا النشيد ليس للجنود، بل لشحذ همّة الجماهير. هذا لأمثالنا البعيدين عن الميدان.

ردَّ مستنكرًا، وأعطى كله للراديو.

«كانت الدنيا ظلامًا حوله وهو يهدي بخطاه الحائرينا
أرضه لم تعرف القيد ولا خفضت إلّا لباريها الجبينا
كيف يمشي في ثراها غاصب يملأ الأفق جراحًا وأنينا»

***

وجدان الزَّحّار..

الممرِّضة المتمرِّسة بالمهنة منذ طفولتها، لم تعتَد رؤية الناس هادئة أو مستكينة، غابت تلك الصورة عن مخيّلتها، فهي منذ طفولتها ترى رجالًا أو نساءً أو حتى صبية يطرقون باب بيتهم باهتياج وثورة، يفتقدون السلوك الاعتيادي الذي يُفترض أنْ يقوموا به عند دخولهم بيتًا غريبًا؛ يتجاهلون التحيّة، ولا يستأذنون صاحب المنزل، أو يرجونه، بل يلهجون بعبارات فوضوية تبدو وكأنَّها أوامر لا يُفترض أن تُقابَل بالرَّفض؛ أن تدركهم القابلة لتنقذ الزوجة، أو الابنة، أو الأم والجنين الذي صار ينازع

للقدوم إلى الأرض. فهم عندما يهتدون إلى بيت القابلة القانونيّة يصبحون كمن وجد خلاصه.

وداد الزَّحّار القابلة القانونيّة الأكثر شهرة في جبال عمّان الشرقيّة، التي ساعدت في ميلاد المئات من أبناء عمّان، لم تنجب هي فيها مولودًا واحدًا لها، وجدان التي ورثت عنها مهنتها وُلدت بعيدًا عن هنا.

تشظي الزمان الذي نشأت فيه البنت منذ أنْ صارت ترافق أمها لمعاونتها في مهنتها التي لا يدري أحد متى يدقُّ جرس بداية العمل فيها، ولا زامور انتهاء الدوام، جعل من الضجيج والصخب والتحفُّز جزءًا من تكوين وتركيب حياة وجدان، لو أنها اختارت مهنة أخرى أقل صخبًا لوجدت وقتًا للاسترخاء، ووقتًا أطول للقراءة، ومشاهدة أفلام السينما، ولربَّما وجدت وقتًا للحُبّ. الأطفال الذين كانت تستقبلهم على بوّابة الدنيا؛ ملؤوا قلبها حتى انطَفَأ.

ما نشأت عليه جعلها لا تلقي بالًا للهدوء الذي يحطّ على المدينة في هذا اليوم، عدَّتْهُ أمرًا عاديًّا ولحظةً عابرة. لقد أشعرتها الشوارع الفارغة من السيارات والناس واختفاء الحركة والأصوات، بأنَّها تسبح بين صفحات كتاب مشوّق جميل، ادَّعَت عدم الاهتمام بما يشغل مضيفها الذي لم يحاول أنْ يخفِّف من انفعاله وقلقه من لحظة أنْ دَلَفَت محلَّه. هبَّت واقفة، مشت صوب القاطع الذي يجلس فوقه الراديو، وبحركة سريعة من يدها أسكتت «عبدالوهاب» الذي اقترب من أن يحسم الحرب:

«أيها السائل عن راياتنا لم تزل خفّاقة في الشهب».

قلَّبت لفائف الأشرطة المصفوفة قرب آلة التسجيل، سألته:

- أين نشيد الطعام الوطني؟
- ماذا تقصدين؟
- تلك المعزوفة التي تضيف سعرها على فاتورة الطعام.

لم يسبق لوجدان أن تكلَّمت مع نادل «الريفيرا» بمثل هذه الطريقة التي بدت وكأَنَّها قريبة منه كثيرًا. منذ أن فُتحت هذ الحانة القريبة من عملها وهي تتردَّد عليها مرة أو مرتين كل أسبوع. لم تتبادل مع ذيب سوى بضع كلمات لا يتعدّى قاموسها عدد أصابع اليدين؛ مرحبًا، كيف أنت اليوم؟ طلبكِ المعتاد؟ صحتك.

تغادر المستشفى بعد أن تنهي ساعات عملها، يكون رأسها ضاجًّا بأصوات أنين النساء الوالدات، وبكاء الأطفال الجُدُد، وأوامر الأطباء المتسلّطة. لا توْق في نفسها لشيء سوى للهدوء والصمت. زبائن النهار في «الريفيرا» الذين هم حالة متشابهة يكونون الأكثر هدوءًا في صخب عمّان: موظف أعزب يتناول شطيرة مع كأس بيرة، عاشقان يتهامسان، تاجر يجمع سجلَّ نتائج عمله ذاك اليوم، وذيب قليل الكلام. يقدِّم لها كأس بيرة، تشعل سيجارة، وتأخذ في مراقبة الدوّار الثالث والهيكل الحجري الذي يتوسَّطه، ومبنى السفارة البريطانيّة. كل شيء يكون ساكنًا، من مكانها تطلُّ على الشارع، تتعطّل وظيفة أذنيها فلا تعود تسمع سوى صوت يشبه الصَّمت، مضْغ لقمةٍ بهدوء، ضحكةٌ تُفلت من فم أحد

العاشقين، أو حفيف قلم كوبية على ورقة. وصلة ذيب بالكلام تبدأ وتنتهي بثوانٍ؛ يقدِّم للزبائن طلباتهم، ويرتدّ إلى مكانه الثابت وراء البار ينتظر إشارة جديدة ليلبّي الأمر الذي يفهمه من إشارة الزبون، أو يرفع هامته ليرحِّب بزبون جديد بحركة من رأسه وابتسامة. الصمت؛ أمنية تحقَّقت لها اليوم بسخاء.

لم تسأل نفسها عمّا تفعله هنا الآن حتى تقدر أنْ تبرِّر لذيب وجودها في حانته. أمّا هو فلم يَبدُ عليه الضيق من هذا الوجود. بل كان مرتاحًا له إلى حَدٍّ ما.

- «ديبوسي، كلود ديبوسي» أجابها عن سؤالها، «ليس هذا وقتها».

انتَقَت عشوائيًّا واحدًا من الأشرطة، علَّقَتْه بحرفة على البكرة الابتدائيّة، أحكمت وثاقه بالبكرة الفارغة، ضغطت بأصبعها على زرّ التشغيل، تسلّل صوت عبدالحليم حافظ يهمس بحزن:

«بلاش عتاب لو كنتِ حبيبي، من العذاب أنا خدتِ نصيبي».

- «ليست مناسبة أيضًا» قال بلطف.
- «بل مناسبة جدًّا» ردَّت بلا اهتمام.
- ما رأيك لو سمعنا آخر الأخبار، لنعرف ما يحدث؟

وكأنَّها لم تسمعه، قالت وهي تعبث بالأشرطة التي أمامها:

- «ما اسم مقطوعة «ديبوسي» التي تضيف ثمنها على فواتير الطعام؟ أين شريطها؟» قالت بنزق مُتكلّف.
- ليس هذا وقتها يا سيدتي.

- سوف أطلب طعامًا.
- «لا بأس، بعد أن تطلبي الطعام، سأسمعكِ ضوء قمر (ديبوسي)» قال بنفاد صبر.
- غير ضوء قمر «بيتهوفن»؟
- أجل، غيرها.

تصميمها على سماع أيّ شيء آخر لم يكن غير محاولة بحث ساذجة عمّا يحرِّرها من الخوف المبهم الذي يتربَّع داخل صدرها، فشلت في فهم كنه هذا الشعور المزلزل الذي تحسُّه، حاولت أنْ تفتِّش عن وسيلة تقبض فيها على ناصية القلق الذي يتلبَّسُها، وتفسير كنهِه؛ فهي إنْ عَرَفَت ما هذا الشيء الثقيل الذي يحطُّ عليها ستجد الوسيلة لكي تلجمه.

أقرَّت بأنها هُزمت، لم تستطع مسح معالم القلق الذي انسلَّ إليها وهي مشغولة بكلِّها في إدخال المولود الأخير إلى عمّان، وصعد إلى وجهها وهي ترى وتسمع: ارتباك الطبيب المكشوف، هتاف الممرضين وكأنهم يتابعون لعبة لكرة القدم ويهلّلون كلما حقق فريقهم هدفًا. تلك الأصوات التي كانت تُبعث من الراديو البعيد؛ بفوضى وصخب، صارت تشعر بخوف مبهم لا تدري كيف تصفه، وعندما خرجت إلى الشارع ورأت الهدوء المفروش فوقه أحسَّت براحة غريبة.

لا تريد أن يتكشَّف لها ذيب جديد غير ذاك «البارتندر» الذي تعرفه. لم يكن لبضع كؤوس من البيرة أنْ تغيِّب وعيها. لقد تمادت قليلًا وتجاوزت الخطوط المرسومة بينها وبين هذا الرجل؛ لكنها لم تسئ له.

عَزَمَت أمرها أنْ تظلّ محافظة على صحوها، وأنْ تملك زمام أمورها، لترشف ما شاءت من الخمرة تنال منها نشوتها وترمي بعيدًا عن رأسها الثَّمالة.

ذيب الذي كان يترقَّب الخطوة القادمة التي ستأتي منها، وعلى الرغم من أنه صار خبيرًا بنفوس النّاس، وبخاصة أولئك الذين يرتادون خمّارته، فكّر بأنّها قاربت أن تنتهي من الكأس الأخيرة التي ستطيح بها؛ الكأس التي ستخلع عنها ثوب وجدان الزبونة الهادئة اللطيفة، وتلبسها ثوب المرأة الثَّملة. يثق كثيرًا أنَّ زبائنه يكشفون عن أنفسهم له بسهولة، فهو يعرف عدد الكؤوس الكفيلة بالإجهاز على كلِّ واحدٍ منهم. تعجُّل وجدان بشرب زجاجتين من البيرة بدقائق قليلة على غير عادتها خلّاه ينتظر قريبًا من خط النهاية. ودَّ لو أنها كفّت عن احتساء الخمر وطلبت منه فنجان قهوة، هو يريدها بكلّ وعيها لكي تعينه على مواجَهة وحشة هذا النهار.

- ما رأيكِ بفنجان قهوة؟

رمقته بغضب:

- لا أحبُّ القهوة في هذا الوقت.

كلما رجعَتْ إلى البيت تكون محمَّلة بالإرهاق من وقفتها الطويلة على ناصية المحطة التي يدلف منها الأجنّة إلى الأرض أطفالًا، وفي مرات قليلة تكون ثمِلَة من الكأس الوحيدة التي تشربها بين فترة وأخرى في «الريفيرا». تُغلق الباب بالمتراس، تطمئنّ على أمِّها، تخاطبها ببضع

كلمات، تسأل عن حالها، لا همَّ إنْ كانت القابلة العجوز المتقاعدة متنبِّهة أو نائمة. تطبع قبلة على جبينها، تطفئ ضوء الغرفة، تخرج إلى «الكورودور». يستقبلها القط «مشمش» بشاربيه الطويلين، تحكُّ له ظهره، تطعمه، تدخل إلى غرفتها، تخلع صحوها الطارئ قبل أن تخلع ملابسها وتعود ترضخ لثمالتها.. تترنَّح، تتعرّى، ترقص، تقع، تعود وتقف، تجهش، تبكي، تقذف أحشاءها على البلاط قبل أن تدرك سلّة القمامة. كل ذلك تفعله بحذر وبهدوء لكيلا تزعج المرأة المُتعبة التي تنام في الغرفة المجاورة.

قصة الحب الوحيدة التي عاشتها بشغف مع الشاب المغترب عيسى انتهت مثل كل حكايا العشق، ورَّثتها الذكريات، والأحلام الميتة، وكادت تدفع بها إلى اليأس وفقدان الأمل بجدوى العمر. انعزلت بنفسها عن اللهو والفرح، وبقيت أسيرة حزن لم تكن تحلم أنه سوف يغادرها في وقت ما.

عندما انسلَّت في أحد الأيام تلك الطفلة الضاحكة من بين فخذي أمِّها، لم تلفت ضحكتها نظر الطبيب، ولا المساعدين المحيطين به، ولم تسمع تعليقًا، ولا ملاحظة على هذه المعجزة التي تحدث أمامهم؛ فالطفلة التي لا يزيد طولها إلّا قليلًا عن طول كفِّها، جاءت وهي تضحك، وظلَّت محافظة على ضحكتها حتى عندما قلَّبتها وطبطبت على إليتها.

خرجت من غرفة العمليّات وهي ممتلئة بالرّغبة في الرّقص. بقيت صورة ضحكة الطفلة عالقة في رأسها طويلًا، تبتسم كلّما تذكّرتها،

ويلامس قلبها فرحٌ ناعمٌ وهي تتخيّل فمها المغطى بالسوائل وهو يجاهد ليظل مبتسمًا. بعد هذه الحادثة بأسابيع احتفلت بها بعض صاحباتها في عيد ميلادها، وعودتها إلى الحياة، مثلما كنّ يحكين لها، شاهدن فيلمًا سينمائيًّا لـ«جين فوندا»، وتناولن العشاء في مطعم أنيق على الدوّار الأوَّل، وفي طريقِ عودتها إلى البيت بدأت تستعيد أحداث يومها وتفكر بما ستحكيه لأمها كعادتها، فكرّت أنها سوف تخبرها عن تلك الطفلة، وتسألها إن كانت قد صادفت في حياتها مولودًا جاء إلى الدنيا وهو يضحك؟ لن ترغب أمها في سماع خبر يشبه ذلك، بل تريد منها أن تريحها وتخبرها إن كان قد دخل حياتها رجل يقدر على ملء الفراغ الذي خلّفه عيسى فيها.

ها هي تقترب بسرعة من الثلاثين، وتفكّر بمعنى أن تنقضي السنوات بهذه السرعة بعد أن تكون قد جاءت إلى الدنيا دون أن تملك الحقّ في قبول هذا الأمر، أو رفضه؟ كل ما تعلَّمته من أمها ومن أبيها قبل أن يتركها هو الآخر، وكل مَن تعرفه؛ أنَّ كلّ شيء يصيب البشر مكتوبٌ عليهم، تساءلت؛ هل كُتب عليّ أن أُطرد من وطني، وأن يرحل عنّي أبي، وتعجز أمي، ولا أتعلّم ما أحب، ثم بعد كل هذه الهزائم أخسر الرجل الذي كان سيجعل عمري حلوًا، وأنتظر المكتوب القادم الجديد؟ يا للمأساة!

لم تنم ليلة ميلاد الطفلة الضاحكة بسهولة كعادتها. فهي فور أن تندسّ في الفراش تبدأ في سرقة الثواني للنوم لكي تستجمع القوة التي تعينها على

الوقوف الطويل في اليوم التالي. فشلت في اقتناص النعاس وظلَّت تتقلَّب على السرير إلى أن أعياها السَّهر.

بعد ليلة الأرق تلك؛ هبَّت من السرير بنشاط، تناولت إفطارها مع أمِّها، وفور أن داست قدمها عتبة البيت الخارجيّة كانت قد اتَّخَذَت قرارًا لا تراجع عنه؛ لن تبلغ الثلاثين وفي روحها أثرٌ لألم أو خيبة. لا يزال لديها بضعة أشهر، سوف تكون كافية لأن تختبر نفسها. إذن لتطفئ ذكرياتها المُرّة، ولتئد أحلامَها، ولتعِش اليوم بحلوه وقبيحه، وتنسَ كلّ ما فيه بعد أن تطفئ ضوء الغرفة وتغطّ بالنوم. غادرت البيت وقد أقنعت نفسها أنَّ أجمل ما عاشته من العمر، هو كل ما عاشته إلى الآن بكل تفاصيله، فهي لا تزال تملك مهنتها التي تحبُّها، وهي الشيء الوحيد الذي يجعلها تأمن للحياة، فلن تكفّ النساء عن الحمل، ولا عن الولادة، ولن يملّ جيرانها من حبِّها. ما زالوا يلتجئون إليها عند كل عارض صحي يصيبهم، إن كانوا نساءً أو رجالًا أو أطفالًا، إنْ حدث ما يستلب منها هذا الأمان لن تشغل بالها فيه، بل ستفتِّش عن أمانٍ جديدٍ.

لم تقدر على إنجاز مشروع العمر بأن تصبح طبيبة أطفال. ما عاشته بعد الشتات شظّى حلمها، ورَكَنَه في زاويا النسيان. غاب أبوها، وأنهك الجهد والإعياء أمَّها، وتلاشى حلمها، ضاعت فرصة العمر بالسفر إلى مصر للدراسة، في غمرة كل ذلك تاهت فكرة الزواج، لتستعيض عنها بقصة حبٍّ شقيّة؛ «ماذا بعد؟» سألت بصوت من غير المستبعد أنْ سمعه

العابرون في الطريق بالقرب منها، ابتسمت وهي تفكر: «سوف يأتي ما هو أجمل».

***

الوقت يمضي ولا أحد يطرق باب «الريفيرا» سوى نسائم الغروب الثقيلة، جرَّب ذيب أن يشعل ضوءًا خافتًا ليتامَّل وجه زبونته الذي بدأ يعتم. ما إن داس بإبهامه زرّ النّور المزويّ حتى انطلق صوتٌ صارخًا من الخارج وكأنه كان يتربَّص حركة أصبعه:

«اطفي الضو».

اهتزَّت وجدان لمدى قرب الصوت منها. تأفَّف ذيب وأشعل عود ثقاب، صار يفتِّش على ضوئه المرتجف عن شيء ما. رجع وهو يحمل بيده عددًا من الشمعات المستعملة والمهملة الأشكال، نصب أطولهنّ على الطاولة التي تحتلّها زبونته، حطّ بمؤخرته على الكرسي المقابل لها، أشعل نور الشمعة التي صارت تتوسطهما، على الضوء الخافت عاد وجهاهما للانكشاف، لقد حقَّق مبتغاه وصار يتأمَّلها عن قرب، أمّا هي فلم ترَ سوى ابتسامة حلوة وكأنَّها تلوح من فمه للمرّة الأولى في حياته.

كلُّ واحدٍ من البشر يحسب أنَّهُ لغزٌ غامضٌ للآخرين، وإنْ لم يكن كذلك؛ فإنه يجهد روحه ليكون غامضًا وعصيًّا على الانكشاف، لا يريد لأحد أن يفكَّ طلاسمه، إلّا إذا قرَّر أن يفكَّ طلاسمه لأمرٍ ما في نفسه، دون أن يفكِّر بأنّه مثل غيره من الناس واضح كالشمس، وإذا ما دُقِّق النَّظر فيهم يصبحون عراة مكشوفين كيوم ولدتهم أمهاتهم.

هل ما يشغل حياتها من حزن وكمد هو الشيء الذي لم يدفعها لأن تتأمَّل ولو قليلًا صورة هذا الرجل الذي تلتقيه مرّة أو مرّتين في الأسبوع؟ لم تحاول أنْ تعرف ذيب، وتظنُّ بأنَّهُ مثلها لا يشغل نفسه بالبحث عنها بأبعد ولو قليلًا عن نظره.

كلَّما استقبلها بالابتسامة ذاتها التي تحفظها كانت تحسُّ بأنَّها ليست ابتسامة حقيقيّة، بل هي شيء يشبه كثيرًا ورد البلاستيك الساذج الذي يزيِّن به حانته وتمقته. ابتساماته واحدة من ورودِه تلك، شيء من لزوميّات عملِه، مشاعٌ للزبائن، يرونها كيفما يرغبون، يحبّونها، أو يمقتونها. لم يخصّها بها، أو يشعرها بأنَّها ملكٌ لها، لم يسبق له أن رسمها على شفتيه احتفاءً بحضورها؛ بل لإيهامها مثل أي زبون آخر أنها لها. شفتاه اللتان جعلتهما نار الشمعة شهيّتين، وابتسامته التي بُعثت من بينهما كان لها مذاقٌ آخر مختلف.

«كيف فاتتكِ هذه؟ كم مرّة قابلتكِ بالابتسامة نفسها؟ ولم تسألي نفسكِ إن كان من المعقول أنَّ على الأرض إنسانًا فرحًا كلّ الوقت!».

لم تعرف إن كانت حالة الفرح التي لامستها سهلة الانكشاف لمضيفها؛ أثرٌ شفيف ليس بصخب أثر فراشة، ما خلَّفته فيها الابتسامة التي أيقنت أنها تعنيها وحدها. أخذت تعدو في تفكيرها برشاقة تحاول التقاط اللحظة الحلوة التي لامستها من جديد.

هل يعرف ذيب أنَّ مَن يرتادون حانته بشرٌ توّاقون للفرح، أو للكثير منه؟ وأنْ لا أحد منهم يفكر أنْ يعيش وجع غيره وحزنه، بل يريد أن ينفرد

بحزنه ويلقي به على عتبات جرعات الخمر التي يكرعها؛ لذلك يبتسم لهم، ويحتمل سكرهم وتعليقاتهم وغضبهم.

هو ليس الوحيد في لعب هذا المشهد المسرحيّ المُزيَّف، الآخرون كلهم الذين يدفعون باب حانته مشاركون مثله. لم تفكر وجدان حتى اللحظة بأنها مثل كل هؤلاء، وبأنه لا يبتسم لها؛ بل للقروش التي تنفقها في حانته.

لا يعرف أحد هذه الحقيقة سوى ذيب الذي تعلّم أنَّ أول ما يطلبه الزبون قبل شرابه هو استقبال لطيف وابتسامة لا يهمّ إن كانت صادقة أو مصطنعة. طلب يُقدَّم مجانًا للزبون، لا تضاف قيمته إلى الفاتورة. من الممكن أن تكون وجدان قد وجدت ما يريحها ولو للحظات، ولم ترغب في إطفاء نور تلك اللحظات الخافت، ولا كبح الفرح المتواضع الذي أحسّته، فَذيب ليس ذاك الساقي الذي طُبعت على فمه الضحكة نفسها منذ الأزل، لا بد أنه كائن يشبهها في أشياء كثيرة؛ يحزن، يبكي، يمرض، يحلم، يُحبط، يفتقد لعمر أجمل، يشتاق لحبيب مفقود، أو حبيب لم يلتقِ به. تلك الحركة الملتصقة بفمه على شكل ابتسامة، ليست سوى مؤامرة يحيكها ضدّ زبائنه لكي يظفر بالقروش التي يدفعونها له، لقد كانت منهم، حتى هذه اللحظة.

تسرَّعَت على غير عادتها، لم تحاول إخفاء احتفاليّتها المتواضعة باكتشافها، قالت بلا تردُّد أو خجل:

- ابتسامتكَ حلوة.

لم تقدر البيرة القليلة التي كرعها ذيب، ولا كأس الويسكي الذي دفعه في جوفه بالخفاء وهو يفتِّش عن الشموع، ولا العتمة، على ستر ارتباكه الذي التقطته هي بأسرع منه. أكمَلَت وكأنَّها تعتذر عن أمر لا يجوز الاعتذار عنه:

- «عنيتُ أنَّ ابتسامتكَ مختلفة، غير تلك التي أعرفها».

ثم عندما هرَبَت منها الكلمات أكمَلَت: «هل تفرحكَ الحرب؟».

وسعت ابتسامته الحلوة نفسها أكثر، نظر بوجهها وكأنه يراه لأوّل مرّة، لم يفكِّر بمقاطعتها، أراد أن يسمعها أكثر. أمّا هي فلم تعُد ترغب في الفرار من المأزق الذي انسلّت فيه بسهولة:

- أنا أتكلّم مع كل مولود جديد، أُخبره أنَّ خلقته حلوة، أو أنَّ عينيه واسعتان، أو أنه عصبيّ المزاج.
- هل يستمعون لكِ؟
- لا أعرف.
- إذن يكلّمونك؟

ضحكت، هزَّت يديها وكأنها تطرد شيئًا عالقًا أمامها، قالت بدلال:

- لاااااا.... لا أكلمهم، أبتسم لهم فقط. خلص، انتهينا، ابتسامتكَ قبيحة.

«اطفي الضو».

انفجر الصوت ثانيةً من بعيد.

***

انبعثت أصوات انفجارات عنيفة هزَّت سكون المدينة، انتفضت وجدان. هبَّت واقفة، وبلا إدراك لِما تفعله هرعت خارج «الريفيرا». لم يردعها عن الركض في الشارع سوى انتباهها إلى أنَّها تركض وحيدة دون أن يلحق بها ذيب.

الخوف الذي حطَّ عليها عند سماع أصوات الانفجارات أجهضه بقاء ذيب ثابتًا على كرسيه وكأنَّ ما وقع شيءٌ طبيعي. انتبهت وهي واقفة في الطريق أمام «الريفيرا» وحيدة تلتقط أنفاسها بأنَّها قد بالغت كثيرًا في خوفها، حسبت أنَّ هذه الانفجارات قد دكّت السفارة البريطانيّة القابعة على الطرف المقابل من الشارع.

«انفجار ضخم في هذه المنطقة لن يقصد مكانًا آخر في هذا الحيّ الهادئ سوى واحدة من السفارتين؛ هذه، أو الأميركيّة التي لا تبعد كثيرًا عن هنا». فكَّرَتْ.

نظرت إلى الرَّصيف المقابل، رأت مبنى السفارة غير ما تخيَّلته؛ كان غارقًا بالهدوء، وعلى عكس البيوت والمحلات المحيطة بالمنطقة، كانت هناك أنوار خافتة تضيء جدرانه الحجريّة بنعومة، وعَلَم بريطانيا العظمى الكبير يرفرف فوقه بلا وجل.

لحق بها ذيب بعد أن أحسَّ بأنها قد تأخرت في الرجوع، كانت واقفة تنظر صوب السفارة، أمسكها من ذراعها، حاول سحبها بلطف إلى داخل المحل. دفعت يده بعيدًا، رجعت تراقب السماء بعينين فزعتين:

«تراهم قصفوا شيئًا قريبًا؟» سألته بقلق.

«ادخلي» قال وهو يعيدها إلى الداخل، «هذا صوت اختراق حاجز الصوت».

- هل قُصفت السفارة؟

تأفَّف، قال بصوت مرتجف:

- لقد لجمكِ الخوف، مَن يجرؤ على قصف هذه السفارة؟

لم تحاول أن تفسِّر انفعاله وغضبه المفاجئ، حملقت به مستوضحة، وكأنَّها تبحث عن معنى لِما يقوله، أو عمّا يخرجها من الحالة التي صارت عليها.

عاد له هدوؤه بعد بعض الوقت، وخزَه أدبه المهنيّ، شعر بأنه قد تجاوز حدود اللياقة، حاول أن يخفف من التوتر الذي استولى عليهما. بصوت متلعثم قال: «هذه الانفجارات يا سيدتي ليست سوى أصوات فارغة، تُحدثها الطائرات عندما تتجاوز سرعة الصوت. ليست أكثر من محاولة لتخويف الناس».

عِوض عن أن يخفِّف عنها، زاد من خوفها، عاجلت بالدخول، لحق بها، بعد أن ترك الباب خلفه مواربًا وكأنه ما زال يأمل بأنَّ هناك مَن سيقصد حانته. فتَّشت بعينيها عن بقعة يمكن أن تكون آمنة من قصف الطائرات، تكوَّمت على كرسي وهي ترتجف.

«إن كانت هذه أصواتًا، فما الذي تفعله القنابل؟» تساءلت في سرِّها.

لا تزيد مساحة «الريفيرا» على بضعة أمتار. عدد قليل من الطاولات المحاطة بمقاعد صغيرة، بار صغير وثلاثة كراسيَّ مرتفعة التصقت به، على الجدار الخلفي أرفف خشبيّة اصطفَّت عليها زجاجات متنوّعة من أصناف الخمور، بعضها ممتلئ وبعضها ما يزال فيها النصف، أو الربع، أو أقل. مضخَّة البيرة التي تستقي سائلها من برميل مختبئ في خزانة وطيئة كانت تلمع فوق البار.

من المفترض أنَّ الجدار الذي عُلِّقت عليه صورة كبيرة لـ«لوريل» و«هاردي»، وأخرى لعجوزٍ ملتحٍ أَدْرَد يحمل كأس بيرة كبيرة، يخفي وراءه مبولة صغيرة ضيِّقة لقضاء حاجة كلا الجنسين لا تتَّسع سوى لمستخدمٍ واحدٍ، تُغلَق بباب أكورديون يصدر صوتًا ناشزًا كلّما فُتح أو أُغلق. هذه هي التفاصيل التي تعرفها وجدان عن المكان، لم تفكر قبل اليوم بأنه من الممكن أن يكون هناك عالم آخر مختبئ وراء ما تراه أو ما تظن أنها تعرفه.

حدث تلك الليلة أنها رأت ما لم يَرَه أحدٌ غيرها. لو أنها كانت تعرف بأنَّ لمضيفها مكانًا خاصًّا هنا إذن لبحثت عن ملجأ فيه، في تلك البقعة الغامضة التي لم تكن تعرف بأنها موجودة، فهي منذ أن بدأت التردُّد على «الريفيرا» التي راقت لها من المرة الأولى، لم يعنِها أمر البارتندر النشط الذي يدير المكان، حفظته مثلما حفظت التفاصيل التي تقع العين عليها: الكؤوس النظيفة، ومضخة البيرة الأنيقة، وصور أبطال السينما،

والرسومات المعلقة على الجدران؛ كل ما كان يعنيها أن تطفئ ظمأها بالقليل من الشراب، وأن تعود إلى البيت بسلام.

***

«**اطفي الراديو**»..

تذكَّر ذيب أنه لم يقدِّم خدمته المعتادة لزبونته الوحيدة. من طقوس حانات عمّان أنَّهُ عندما يطلب الزبون زجاجة بيرة لا بدَّ أنْ ترافقها صحون صغيرة تحتوي بضع حبّات من الفستق السوداني والترمس، يستطيع الزبون المداوم معرفة عددها بالنَّظر، وباللَّمس إنْ كان متلهِّيًا بقراءة صحيفة أو كتاب، أو بالحديث مع نديمه دون أن ينظر فيها، وعندما توشك هذه الصحون على النفاد يرفع يده بإشارة مُتعارف عليها لطلب صحن جديد. أكثر ما يبغض ذيب في مهنته هذه الإشارة.

حذاقة قبضة كفّ ذيب تكمن في تناولها حفنة فستق من كيس ورقٍ مختفٍ على واحدٍ من الرفوف، أو غَرْف ملعقة من الترمس المنقوع بالماء ثم وضعها في الصحن الصغير الذي يشبه القارب. الكميّة ذاتها يضعها النادل البارع في الصحون كلها؛ بالكاد يُفرّق بينها حبَّة أو حبَّتان، عدالة بخيلة تُوزَّع بالتساوي على الجميع.

تذكَّر أنه لم يضع واحدًا من قواربه هذه أمام زبونته الوحيدة التي ستجعله يفتح صندوق نقوده، وَستجعل لهذا اليوم حضوره، وتمنعه من النسيان، ومِن أن يُمحى من التاريخ.

دفتر الفواتير الصغير الذي يدوِّن عليه طلبات الزبائن اليومية هو الشيء الوحيد الذي يثبت حضور الأيام، سبعة أيام في الأسبوع، لكل يوم أوراقه التي يُسجّل عليها الطلبات والأسعار والتاريخ. لا أيام عطل، ولا أعياد، كلها أيام عمل، أحد عشر شهرًا متواصلة لا يقطعها شيء، ولا ينقص منها يوم ولا حتى إنْ وقعت الحرب. للشهر الثاني عشر المفقود أجندته الخاصة؛ إجازة طويلة يتغيَّر إيقاعها بين فصول السنة، ولا يغيِّر حضورها من تسلسل باقي أيام السنة.

لو حدث وما عرّجت وجدان على حانته اليوم، لو أنها قررت البقاء في المستشفى، أو وجدت وسيلة تنقلها إلى بيتها، لغاب هذا اليوم من التاريخ.

تناول دفتر فواتيره، فتح صفحة جديدة، كتب بخط متعرّج سريع. اليوم الاثنين 5 حزيران من سنة 1967.

«ما رأيك ببعض الترمس والفستق؟».

هزَّت رأسها بـ«لا»، أشارت إلى السيجارة المشتعلة بين أصابعها بأنها مزَّتها المفضَّلة:

- أفضِّل هذه على فستقكَ المسوِّس وترمسك المُرّ.

ضحك، التقط مدخلًا للكلام عن غير الحرب التي تثقل على زبونته:

- ليت كل الزبائن مثلكِ، هذا الفستق الذي تهزئين منه بعضهم يعدُّه وجبة طعام مجانيّة، يطلب الصحن تلو الآخر حتى يُجهِز على ربح البيرة.

رَفَعَ كأسه طَرَقَ بها كأسها:

- صحتك.

ردَّت وهي تضحك: «لا، بل صحة الزبائن الذين يقتاتون على فستقك».

راقت لهما الفسحة التي أخرجتهما عن النص المكتوب لعمّان ذلك النهار، صارت حواراتهما مروّقة ومسلّية، خفَّفت قليلًا من توتُّرهما، لكنها لم تقدر أن تخفي خوفها، ولا ترقُّب ذيب الصامت للغامض الذي سوف تحمله عتمة عمّان.

لم يكفّا عن الكلام، تناسَت طلباتها من الأغنيات والموسيقى، تفلَّت ذيب بكياسة وأعاد مؤشِّر الراديو لإذاعة عمّان، قال: «يجب أن نسمع آخر الأخبار».

«مَن سينتصر؟» سألته وقد بدت مصدِّقة بأنَّهُ يعرف الإجابة عن سؤالها. خيَّب ظنّها عندما ردّ وهو ينفخ هواءً ساخنًا من فمه: «لا أدري»، أطرق قليلًا قبل أن يقول وكأنه يعلن الهزيمة: «مَن ينتصر لا يتكلَّم، بل يقاتل».

- هل أنتَ متشائم؟

ردَّ بالحال:

- تسعٌ وتسعون بلاغًا عسكريًّا، إسقاط عشرات الطائرات للعدو بدقائق، أيّ حرب هذه؟
- «لماذا اندلَعَت فجأة؟» عادت لسؤاله.

- ما أعرفه أنها لم تتوقَّف منذ عشرين سنة.

أحسَّ بشيء من الراحة عندما وجد أنه قد استطاع أنْ يشدَّها للكلام بالشأن الذي يشغله، فقد تخفِّف كلماتها من قلقه العظيم عمّا يمكن أن يأتي به هذا اليوم. لقد بعثت في لسانه الحياة، لن تتركه بعد الآن ينازع الأفكار التي تتخبَّط في رأسه وما يثقل على أنفاسه وحيدًا. لقد أنقذه حضورها وأعاد للسانه وظيفته.

منذ ساعات الصباح الأولى، وبعد أن انتهى من الاغتسال وحلاقة ذقنه، طفق يحوم في أرجاء المكان برتابة العادة المستحكمة، يثبِّت، يحرِّك، يرتِّب، يمسح، يغسل، يجفِّف، يكنس وينجز ما نسي الصبيّ مساعده أو تلكَّأ في إنجازه؛ يدخّن بعدها سيجارة ويشرد مع دخانها بعيدًا.

استيقظ هذا اليوم على انقباض ثقيل. في الجوّ شيء مريب، الهدوء المطبق يستفزُّه؛ أين غابت أصوات زوامير السيارات وانطلاقة أبواب الدكاكين؟ أين صخب باعة الصُّحُف وأولاد الجيران النشطين؟ وأين مساعده الكسول؟

صبيحة هذا اليوم، الاثنين، لم يشرب قهوته على الناصية الهادئة أمام «الريفيرا» كالعادة، فكر بعد أن لَفَتَه غياب الحياة والحركة، أنه قد يكون اليوم عطلة نسي أمرها ولم يخبره عنها الصبيّ معاونه؛ فلا محالَّ مفتوحة ولا حركة للسيارات. عاد للداخل. قبل أن يطال الراديو ويدير مفتاح التَّشغيل سمع صوت انفجارات هزَّت أركان عمّان، بسرعة البرق أصبح خارج المحل، نظر حوله، لا حركة ولا أصوات. «ما الذي يجري؟»

تساءل بخوف، عاد إلى الداخل، عجّل في فتح الراديو، الذي انطلق منه صوت أغنية حماسيّة:

«يا إلهي ماذا فاتني».

لا يُدفع نؤوم الضحى ذيب للنُّهوض من النوم قبل الساعة العاشرة إلّا لأمرٍ واحدٍ؛ مشوار وسط البلد. صباح كل يوم سبت يتحامل على نفسه، يستيقظ كعادة الموظفين قبل الثامنة، يكون بعد أنْ يغادره آخر سكارى يوم الجمعة قد أعدَّ لائحة المشتريات، يجب أن ينزل صباح السبت إلى وسط البلد لشراء احتياجات المحلّ الأسبوعيّة القليلة: الفستق والترمس والصابون، أوراق تنشيف الأيدي. أمّا ما تحتاجه «الريفيرا» من البيرة وأصناف الخمور الأخرى فالموزِّعون بشاحناتهم الصغيرة كفيلون بها.

منذ الصباح لم يجد مَن يحكي معه، وهو الذي لا يحبُّ الحكي، لكنه أحسَّ بضرورة أن يجد مَن يحمل معه هوْل صدمة الحرب التي لم يعرف شكلها بعد. خَرَجَ، راقَبَ الشارع من جديد، وَجَدَه مثلما تَرَكَه؛ فاقدًا للحياة، عاد يبحث في الراديو عن أخبار يمكن أنْ تُنقذ فكره من التشظّي. يتملّكه للحظاتٍ فرحٌ خرافيٌّ عندما يسمع أخبار الانتصارات على طول الجبهات المحيطة بفلسطين، فرحٌ قد يدفعه لأن يغلق باب «الريفيرا»، أو أن يتركه مشرّعًا وييمِّم صوْب الغرب يمضي نحو البحر. سوف يكون أوَّل عربيٍّ مدنيٍّ يدخل فلسطين بعد أنْ تحرَّرَت.

لا يلبث أن يعود له الانقباض الذي أحسَّ به في الصباح يقطعه مثل نصلٍ لنصفين.

الأغنيات الحماسيّة في إذاعة عمّان تتواصل بلا انقطاع. ومذيع صوت العرب من القاهرة يعدِّد الطائرات التي أُسقِطَت للعدو.

صدْمتُهُ ووحدتُهُ وارتباكُه، لم تكُن كافية لأن يتفجَّر، لكنَّها أوشكت أنْ تُفضي به إلى الجنون. انطلق من الشارع صوت ميكروفون يوزِّع تعليمات على المواطنين. رأى من خلف الزجاج الذي لم يكُن قد تلوَّث بعد مكبِّرَ الصَّوت الضَّخم المعلَّق على سقف سيارة شرطة وهو يأمر الناس بالاختباء في الملاجئ، وتعتيم النَّوافذ بالأزرق النيليّ، فقد عَبَرَت طائرات بلمح البصر فوق عمّان، ألقَت بحممها فوقها ومضت.

زامور الخطر الطويل الذي سبق ارتقاء الطائرات الإسرائيليّة سماء عمّان بثوانٍ، والذي لم يملك الوقت لفهم ما يعنيه، لم يُعِنْه على تقبُّل صدمة المفاجأة، سماعه للأخبار لجمه، شدَّ وثاق لسانه قليل الكلام. عندما دفعت الزبونة الوحيدة باب «الريفيرا»، ومدّت عنقها إلى الداخل، عاد له صوته.

لن يعود ليكلِّم نفسه. من اللحظة لا جدل ولا اختلاف بين ذيب وبينه، ولا رسم لمواقف خرافيّة، ولا لصنع أحداث من الوهم. سيكفّ عن التَّحاور مع المذيعين الذين ظلّوا يتجاهلون إشاراته، وأسئلته، وحتى لَعَناته. حضورها سطا على أفكاره وألقى بباقي الأصوات بعيدًا. الأصوات لا تخرج من أفواهنا إلّا إذا كان هناك مَن يسمعها، إنْ حدث وصرخنا بصوتٍ عالٍ في وحدتنا فإنَّ أصواتنا تظلُّ حبيسة صدورنا، الآن سيتكلم.

صار لزامًا عليه ألّا يسمح للراديو ولا لمذيعيه المدجَّجين بالغضب أنْ يخيفوه أو يخدعوه، لقد طردتهم السيدة التي حضرت بكامل بهائها، وكأنَّها تدعوه للرقص. لن تخذله، سوف يردع الآن بحضورها ما صنعته فيه الأغنيات الثائرة، فلا سلاحَ صاحٍ، ولا ابنَ يطلب من أبيه البطل أن يجلبَ له الانتصار، ولا رجوع بقوّة السلاح. الطائرات التي غزت سماء عمّان أشعلت في سماء رأسِه المحرقة وخلّفته رمادًا إلى أنْ أعادت بعثَه هذه العابرة. غاب صوت الراديو ولم يعُد يُسمع سوى صوتها الساحر، زبونته المعتادة، المرأة التي يرى في وجهها الآن التعابير نفسها المتنازعة بين الخوف والحيرة، حتى في أوقات السِّلم.

كلَّما دخَلَت وجدان حانته، وتناوَلَت شرابها المعتاد، وأشعَلَت سيجارتها، ومَضَت تراقب المارّة والطريق بصمت، كانت ترتسم على محيّاها التعابير نفسها؛ الخوف والحيرة. هي نفسها الآن لكن بلا صمتها الذي خلعته وعلَّقته على المشجب خلف الباب.

أخَذَت تسأله ببراءة عن تفاصيل صغيرة كان يحاول أن يطردها من أفكاره، قطَعَت الطريق عليه صوْب الراديو، خلَّته لا يصدِّق البلاغات العسكريّة التي حاولت إيهامه بأنَّ طائرات العدو تسقط مثل عصافير مصابة، خدَشَت العزلة التي تحتويه، أجهَزَت على صمتِه، ورَحَلَت به عن بدايات صباحه الحزيرانيّ المقيتة.

الزبونة التي كانت تملأ كل الكراسي، وتشغل طاولات «الريفيرا» انطلقت بالكلام والأسئلة دون أن تلتقط أنفاسها. قال لها بلهجة العارف محاولًا أن يأخذها إلى البدايات التي أشعرته بأنها لم تسمع بها:

- أغلَقَ عبد الناصر مضائق تيران...
- «أين تقع مضائق تيران؟» سألت بسذاجة.
- سحَبَ القوات الدوليّة التي كانت تفصل بيننا وبين الإسرائيليّين.
- لماذا سحبها؟
- وقَّع معاهدة دفاع مشترك مع الأردن.
- هل مصر والأردن غير متعاهدتين على الدفاع عن بعضهما بعضًا؟
- ما بِكِ؟ هل تعيشين في كوكب آخر؟

وكأنَّها لم تسمعه، ولم تتلقَّ بوجهها رذاذ لُعابه، بقيَت محبوسة بأفكارها المتضاربة، تجاهَلَت انفعاله، ادَّعَت الابتسام له، ثم بهدوء وبصوت بالكاد يُسمع سألته:

- هل تعرف اسمي؟

سكت، لجمَه سؤالها البعيد عمّا يقوله، فردَّ متأفِّفًا:

- وجدان، أعرف أنَّ اسمكِ وجدان ما هذا السؤال الغريب؟

قالت:

- الزَّحّار، اسمي وجدان الزَّحّار.

ثم عادت تسأله ببرود:

- هل تعرف معنى الزَّحّار؟

- «لا» ردَّ بنفاد صبر.
- «معناه اللهاث» قالت دون اكتراث.

وضَعَت ساقًا على الثانية، سحَبَت نفسًا طويلًا من سيجارتها، نفَثَتت الدخان عاليًا، قالت بهدوء مُبالغ به:

- أحملُ هذا الاسم وكأنه حقيقتي، وليس اسمي. حاولتُ أن أتخلَّص منه وفشلتُ لأنه مكتوب في شهادة ميلادي، وعلى جواز سفري. لم أجد سبيلًا للخلاص منه غير أن أحاول نسيانه، وها أنتَ قد جئتَ تطلب منّي أن أعود لتذكُّره، وأن أعود من جديد ألهث لكي أعرف ما يدور في العالم. أنا لا أريد أن أعرف ما أعرفه، لقد توهَّمتُ أنكَ قادرٌ أن تجعلني أفهم.
- «كيف لا تفهمين أمرًا يؤثِّر في حياة كل الناس؟» سألها مستغربًا.
- هل تفهم أنت وكلّ الناس؟

وكأنها وجَّهَت له طعنة غرستها في صدره بلا شفقة. احتار في ما يجب أن يقوله. قطَعَت عليه حيرته:

- أريد أن أتنفَّس، لا أن ألهث.

ألقت بعبارتها الأخيرة وسكتت.

خيَّم الصمت على «الريفيرا».

***

قلّاية بندورة..

- ترغبين في شيء تأكلينه؟

- لا شهيّة لديّ.

حصارٌ مُشتهى، لا تعرف كم صار بيتها قصيًّا، حركة الشارع الخامدة تخبرها كلما نظرت من خلف الزجاج بأن لا أمل لها في المبيت على سريرها بعد أن تحكي لأمِّها أخبار يومها. فإمّا أن تبقى هنا وإمّا أن تعود لمكان عملها. حصارٌ قد يسوقها لمغامرة غير محسوبة. لولا أنَّها أحسَّت بالراحة لكَسَرَتْهُ بمسير بضع خطوات إلى المستشفى، لكنَّها كانت تفكِّر بأنه يعِدُها بتجربةٍ جديدة.

الوقت يمضي مسرعًا، تريده أن يبطئ.

- «ماذا ستطعمني؟» سألته وقد عادت عن قرارها.
- ماذا تحبّين أن تأكلي؟
- لا أعرف.
- سأعدُّ لكِ وجبة خاصة، ليست من ضمن لائحة المطعم.
- ما هي؟
- قلّاية بندورة.
- جميل. سأعاونك.
- دعي عنكِ، هذه صنعتي.

هبَّ واقفًا، اختفى خلف القاطع الخشبيّ.

«هل وراء ذاك القاطع يقبع أفقه المفقود؛ أرض الخرافة والحلم؟» خطوات قليلة تبعدها عن عالم هذا الإنسان الغريب.

«هل أنتَ عصيٌّ على الالتقاء، مثلما كنتَ عصيًّا على الانكشاف؟».

بعد أن صارت وحدها أخذت تنبش في صدرها لترى ما الذي يختبئ فيه، لم تجد غير الخوف. «ما العمل؟»، فكرت: «أين لها أن تهرب؟ وهل فعلًا سُدَّت أمامها الطُّرُق إلى البيت؟ أم أنَّها هي مَن أرادت أنْ تُسدَّ؟».

طال غياب ذيب خلف الجدار الذي جعلها معزولة وحدها في عمّان الخائفة مثلها. «ماذا أفعل هنا مع رجل غريب؟». عزمت أمرها على الخروج من دوّامة القلق التي تطيح بها، إمّا أن تصل إلى البيت، وإمّا أن تعبُر بـ«ريفيرا» جديدة، أو تلتقي بِذيب آخر.

«هيه؛ أيها «الذيب» هل أنتَ مَن يُلزمني مكاني، أم هو الخوف من الحرب التي لا أصدِّق أنَّها قد اشتعلت؟ لماذا أحكمْتَ حصارَكَ عليّ يا صاحب الحانة؟ ماذا لو اعتذرتَ وقلتَ: الحانة مغلقة بسبب الحرب؟ صدِّقني كنتُ سأعذركَ، أعرف أنَّ الحروب تسدُّ الأبواب كلها، حتى في وجوه البريئين منها، كيف جعلتَني أحبُّ أنَّكَ لم تعتقني وأن أرضخ لك؟ حتى إني أردتكَ أن تُحكِمَ حصاركَ عليّ، تقبض أنفاسي، وتهشِّمني، وأنا التي أعرف كم أنيّ عصيّة على الاستسلام. حرِّرني أيها الرجل من هذا القلق الساكن فيّ، أحسُّ قلبي ينازعني ليخرج من فمي. يا لها من فاجعة». صرخَتْ عليه داخل صدرها.

ليس غريبًا عليها أن تصدّ كلَّ مَن يحاول الاحتكاك بها أو التقرُّب منها. مسألة أنْ يدخلَ حياتها غريبٌ قضيّة محسومة بالرَّفض، لا فرق إن كان رجلًا أو امرأة. ما الذي جرى لها حتى تصير راغبة بقوةٍ أن يحتلها هذا «الذيب». منذ أن حسمت أمرها أنْ لن تسمح لأيّ عابر أنْ يدلفَ

بوّابة قلبها أو جسدها، إلّا إذا أشعرها أنه عصيٌّ على الفراق، لا فرق عندها إن عبرت بعلاقة فصارت قصة حب، أو نزوة قصيرة تذوي سريعًا في النسيان. كل ما يهم هوّ أن تترك فيها قيمةً يليق بها أن تظلَّ عالقةً في النَّفس، فلربما طغت الذكريات الحلوة القصيرة إن تراكمت، على المُرّ الكثير الذي عاشت.

الأطباء أقل الرجال أثرًا في نفوس النساء فهم لا يحتملون عناء التودُّد للنساء، والنساء يعشقن من يتودَّد لهّن. ما يقدِّمونه للمرأة أروابهم البيضاء والبادجات المعلّقة عليها وكأنها سحر يغيّب كل تفاصيلهم ولا تُبقي سوى أسمائهم التي يسبقها حرف دال كبير. هؤلاء هم صنف الرجال الأبعد عن نفسها، سحرة الممرضات، والمريضات. لم تتعدَّ علاقتها بأيّ واحد منهم غرفة الولادة. الدكتور القصير، وصاحب الكرش، والعجوز الهرم، وذاك الذي أنفاسه لا تُطاق، كلّ واحد منهم «دنجوان»، «ألان ديلون»؛ النَّجم الفرنسي الجميل مثلما تسمّيهم عندما كانت تتندَّر على صديقاتها وهي تستمع لقصصهنّ، وتجاربهنّ معهم، وهم حكماء وفلاسفة، ومَن بيدهم حياة المرضى وموتهم. لقد حسمت أمرها منذ البداية، بأنْ لا للأطباء.

قطعت سيل أفكارها عندما تذكَّرت بأنه لم يبدُر عن نديمها ما يوحي بأنه يضع خطة للنَّيل منها، لا إشارة، ولا حركة، ولا كلمة غزل، هي التي بادرت وإنْ لم تقصد أن تذهب بتغزُّلها بابتسامته نحو هذا المدى، فهو مشغول بكله في أمر الحرب.

لم تعتَد وجدان على تنويع شرابها إلّا في مناسبات خاصة قليلة، تكون هذه المناسبات في البيت إذا كانت في إجازة طويلة، أو إن زارتها إحدى صديقاتها التي تشرب مثلها. البيرة شرابها العام، هي تدَّعي أنها تعرف كيف تسوسها، وتدجِّنها، وتلجمها من أن تسطو عليها وتُثملها، توهم نفسها أنَّ بمقدورها أنْ تعرف قدر حاجتها منها، في كلِّ مرّة كانت تُدعى لحفلة، أو عشاء، أو حتى عندما كانت تدخل «الريفيرا»، تكون قد رسمت خطًّا بدايته ونهايته الكأس الأولى، لا تجاوُز لهذا الخط، لا استثناء إلّا إذا قرَّرت هي ذلك، لأنها تعرف متى يحين الوقت لترسم خط النهاية. تظل حريصة على ألّا يغيِّبها الشرب عن وعيها، أو أن يُفقدها عقلها، إلّا بالقدر الذي تريد.

تكثر الاستثناءات في أيام الصيف، تمدُّ الخط قليلًا إلى أن يلامس قاع الكأس الثانية، أو الثالثة. وإن كانت حزينة أو يشغلها أمرٌ كان الخط ينقطع في نصف الكأس الأولى، يصبح شرابًا لإطفاء ظمئها وبلِّ ريقها، ولا يعلو إلى رأسها.

لقد تجاوَزَت اليوم كل الخطوط، ولم تتوانَ عن صدِّ ذيب عندما نبَّهها إلى أنَّها شربت كثيرًا. لم يكن يبدو عليها أنَّها قد ثملت، أو قاربت على ذلك. صاحب الحانة لا يعرف شيئًا عن خطوطها ولا استثناءاتها، ما زالت كلماتها موزونةً، وبقيت مشيتها ثابتة عندما استأذنته للذهاب إلى دورة المياه، نصبت طولها وانسلّت من وراء الطاولة بثبات، وعادت بعد أن قضت حاجتها لتحتلَّ مقعدها وتطلب منه أن يسكب لها كأسًا جديدة.

قد تكون الانفجارات التي هزَّت سماء عمّان وأرعبتها هي ما أفرغت رأسها من كل ما كان فيه؛ رائحة المولود الأخير التي كانت ما تزال تعبق في أنفها، عبارة الغزل التي أغدقت بها على البارمان، ومشاعرها المتأججة الغامضة؛ جعلتها تطلب كأسًا جديدًا.

«أتريد أن أساعدكَ؟» سألته بصوتٍ عالٍ.

«لا، شكرًا» صرخ من خلف الحاجز.

لحظات صمت، اخترقها صوت سكين يقطّع حبات البندورة على سطح صلب، وصوت مذيع خافت يعلن البلاغ رقم مئة، لا أصوات في الخارج، هدوء وعتمة وكأنَّ عمّان أقفرت من ساكنيها فجأة. تناولت حقيبتها، وقفَت، ومَضَت إلى الخارج.

الدوّار الثالث معتم إلّا من ضوء أحمر معلّقٍ فوق عامود إرسال على سطح السفارة البريطانيّة يشتعل برهة ثم يختفي وكأنه يبعث برسالة شيفرة إلى المجهول. صوت ماتور سيارة يلوح من بعيد، بسرعة صارت قريبة، أضواؤها مدهونة باللون النيلي، بالكاد يلامس نورها الطريق، أشارت لها أن تقف، تجاهلتها. عبرت من أمامها. لمَحَت عن قرب السائق وهو يشدُّ بيده على كتف امرأة تجلس بجانبه. مضَت مبتعدة صوب المستشفى، واختفت تحت ظلِّ اللَّيل.

مولود جديد.

اشتدَّت العتمة، أصوات بعيدة لا أحد يدري من أين تنبعث، تصرخ: «اطفي الضو».

الفصل الثاني

الطريق إلى البيت..

قطَعَت الدوّار. الطريق صامتة، فارغة. ترسل بعض البيوت القريبة إشارات توحي بأنَّ فيها حياة؛ ستارة تتحرّك، ضوء شمعة يمشي مثل خيال، أو صوت وليدٍ جديدٍ لم تفلح أمه بإسكاته.

«أين اختفت الحياة؟ وإلى أين أمضي؟».

بدأت بهبوط الطريق صوب الدوّار الثاني. اشتدَّت العتمة، شعرت بتوازنها يختلّ، لو بقيت تنتعل خفّ الممرضة لسهلت حركتها، لم تكن لتصدِّق أنَّ حربًا قد اندلعت حقيقةً، وأنَّها قريبة إلى هذا الحدّ:

«ما الذي دفعكِ لتبديل ملابسكِ؟ هل خفتِ أن تُكشَف هويَّتك إنْ انهَمَرَت القنابل فوق البيوت، وطلب الجرحى منكِ مساعدتهم؟ هل تخافين من الذين يرون فيكِ نجاتهم؟ لذلك تركتِ ذيب وحيدًا دون أن تفكِّري أنْ تودِّعيه، حتى إنك لم تدفعي له ثمن ما شربتِ؟».

الطريق إلى وسط البلد طويلة. لو حدث ولحقت بها وسيلة مواصلات ستخفِّف عنها كثيرًا، ستصبح قريبة من «جبل القصور»، يمكنها السير من وسط البلد للبيت براحة وبلا خوف. الأسهل عليها الذهاب إلى الشقة التي لم تزُرْها منذ زمن، الدوّار الأوَّل أقرب لها من «جبل القصور»، «هي ليلة واحدة لن تغيِّر شيئًا».

دسَّت يدها داخل حقيبتها، نبشت بين الأشياء الصغيرة الكثيرة التي فيها، دنانير قليلة، منديل نظيف، أحمر شفاه، علبة كحل، قطع نقود معدنيّة، ها هو مفتاح الشقة معلّقٌ وحيدًا في الميدالية التي لم تفارقه منذ سنوات. «تراها لا تزال على حالها وبانتظارها؟».

عَبَرَت سيارات كانت تنطلق بسرعة البرق من أمامها، بعضها كان يمضي عكس طريقها. أشارت لها مستنجدة.

«سترجع، لا بدَّ أنها تنقل أناس تقطَّعت بهم السُّبُل مثلي».

صارت تبحث عن شيء تسلّي به نفسها؛ إن تكلَّمَت بصوت مرتفع، أو غنّت لن تلفت انتباه أحد، فهي لا تحمل معها سوى صوتها.

«لـمَ لا تغنّين؟ بعضهم يصفُ صوتكِ بأنَّهُ جميل، أنتِ تعرفين أنَّ صوتكِ جميل لكنَّكِ ترفضين الاعتراف بذلك حتى لا يجبركِ أحدٌ على الغناء. غنّي لكِ، لن يسمعكِ أحد ويتَّهمكِ بجمال صوتِك».

فتَّشَت عن أغنية تروق لها، كلَّما التقَطَت واحدة تحبُّها، كان صوت عبدالوهاب يعلو عليها، ويأبى أن يغادر مسامعها:

«يا سماء الشرق طوفي بالضياء

وانشري شمسكِ في كل سماء

اذكريه واذكري أيّامه

بهدى الحقّ ونور الأنبياء».

«ماذا تبقّى من وسيلة تحملكِ على إكمال مشواركِ الذي يبدو أنه قد أصبح أطول؟».

عادت وتذكَّرَت ذيب، شعَرَت بوجع في ضميرها. كيف غادرت دون أن تخبره، ودون أن تودِّعه؟ لم تبحث عن إجابة على كَمّ الأسئلة التي ظلَّت تتردَّد في رأسها. أدرَكَت أنَّها قد وصلت إلى النقطة الفاصلة، ليس بفعل السُّكْر، ولا الخوف، بل من المشاعر التي أجَّجها فيها ذيب دون أن يقصد.

قبل أن تترك «الريفيرا» فكَّرت بأنَّ كمية البيرة التي شربتها كافية لتغييب وعيها، لكنَّها ظلَّت متنبِّهة؛ فقد أحست أنَّ مضيفها خائفٌ مثلها، لم تكُن أذناه قادرتين على الهرب من صوت المذيع الذي تجاوز عدد بلاغاته المئة، كان يبحث عمّا يهدِّئ من صخبه وقلقه، أو يعطيه القليل من الوهم بالأمل. هي ليست خائفة مثله لأنها قرَّرت منذ أن كلَّمها عن الحرب أن تتجاهلها، حتى وإن أصبحت في البيت. اقترابها من ذيب حرَّك فيها الأنثى التي كانت متربِّصةً اللحظة لتنطلق، وتحتلّ هدأتها وتصالحها مع نفسها، لكنَّها جبنت وفرّت دون أن تستأذنه.

اليوم يكون قد مضى على رسالة عيسى الأخيرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام. لو أنه أحبَّها حقيقةً لما مات وتركها. بقي غامضًا عصيًّا على الانكشاف لها حتى في موته. أيّ عاشق تعِس هو؟ الانتظار يلد انتظارًا، تظلّ الكائنات منهمكة بهذه المعادلة الوهم إلى أن تدقّ ساعة النهاية. الأمل كذبة الناس التي يجمِّلونها لكي يحتملوا البقاء، يصنعون منه مبرِّرًا لانتظارهم الذي يعرفون بأنه بلا جدوى.

حكايا الحُبّ محطّات انتظار متزيِّنة بوهمٍ فاتنٍ خلّاب، لا يُرى، لا يُسمع، ولا يُحَسّ، لكنه يسطو على نقطة صغيرة مجهريّة في القلب يحكُم منها العاشقَ ويسطو عليه. أنت لا تُهزم عندما يغلبك الوهم، أو عندما يستلبك الجنون، كل ما في الأمر أنك تستسلم لإرادتك، وترضخ لرغبتك التي تسكن فيك منذ الأزل، وهي أن تحيا مع الوهم، أو أن تنزلق إلى الجنون.

أوَّل مرَّة رأت عيسى فيها كان جالسًا في كافتيريا المستشفى دون أن يبدو عليه قلق المنتظرين. كان كمن يتربَّص بشيء ما يحرِّكه ويكسر الملل القابع فوقه. المنفضة الممتلئة بأعقاب السجائر، وفنجانا القهوة المهجوران مثلما يوحي مكانهما البعيد عن متناول يده؛ كانت تعلن أنه لم يعُد قادرًا على الجلوس هنا أكثر. تململ على مقعده، أطفأ سيجارته التي لم يكتمل حرقها، هبّ واقفًا ومضى مسرعًا صوب المصاعد. كانت تراقبه وغيره من المتحلّقين حول الطاولات بانتظار أن تشغر واحدة منها في الكافتيريا الصغيرة. تحيَّنَت لحظة انصرافه، وبخفّة احتلّت مكانه. قبل أن تنهي الرَّشفة الأخيرة في فنجان قهوتها رأته واقفًا منتصبًا فوق رأسها. دقائق قليلة غابها وعاد ليجد أنّ مكانه قد سُرق:

«علبَتا سجائر ونظّارة لا بدَّ أنَّها كافية لتعلن بأنَ أحدًا ما يجلس هنا» قال بانفعال لكن بصوت خفيض.

رفَعَت رأسها، ببرود، ردَّت:

- لا يكفي، قد تكون منسيّة.

زمَّ شفته مستغربًا:

- هل تتخيَّلين أن أحدًا ينسى علبَتَيْ سجائر ونظّارة؟
- يحدث كثيرًا مع مَن ينتظر مولودًا.
- كيف عرفتِ أنَّني أنتظر مولودًا.
- كلُّ جالسٍ هنا ينتظر مولودًا.

«ماذا عنكِ؟ هل تنتظرين مولودًا؟» قال مستهزئًا وهو يشير إلى لباسها.

«أجل، أنتظر أكثر من واحد» أجابته بنفاد صبر، ثم وبحركة سريعة وقفت ومشت خطوة أو اثنتين بعيدًا عنه، رجعت بعد لحظة، قالت:

«آسفة». ومضت وهي تلعنه بصوتٍ خافتٍ.

من الممكن أنه قد فكَّر بأن يغيِّر من شكل انتظاره الذي طال كثيرًا. وأن يبحث عمّا يمكن أن يسلّيه عندما تجرَّأ ولحق بها عند المصعد، سدَّ بذراعه الطريق عليها، وقال بأدبٍ جمّ:

- أريد أن أعتذر.
- لا داعي.
- أنا آسف.
- لا بأس.
- لا، أرجوكِ، اسمحي لي أن أدعوكِ لفنجان قهوة. لا تتركي ضميري يعذِّبني.

لدى النساء مَلَكَة خارقة في قراءة نفْس الرجل وأعماقه. هذه الملكة ليست موجودة عند الرجال في قراءة دواخل النساء. الأحاسيس التي

تحرِّك عقل المرأة تكون وقتيّة، لكنَّها صحيحة، فهي تعرف الرجل الذي يحاول التحرُّش بها، أو ذاك الذي يريد أن يقضي وقتًا معها، أو يحبّها. تعرف المرأة كل ذلك قبل أن يكون الرجل ذاته قد أحسّ به. لا يمكن لأيّ امرأة أن تنكر هذه الحقيقة حتى وإن تكشَّف لها مع الوقت أنها على العكس ممّا توقَّعته، وقتها تكون هي مَن ضلَّلت نفسها وأوهمتها بأنها لم تكن محقّة لرغبةٍ ما في داخلها. لقد عرفت وجدان وهي تعود معه إلى الكافتيريا، بأنَّها سوف تحب هذا الرجل وسوف يحبُّها.

العمل الطويل في غرفة الولادة، ومع الأطفال الجُدُد يضعف عضلة اللِّسان، ويجعل الكلام ينقرض. الطبيب يظلُّ صامتًا طوال عمليّة الولادة، حتى وإن أراد مبضعًا أو منديلًا فإنه يكتفي بالإشارة، قد ينطق بضع كلمات يطلب فيها من الأم أن تساعده في دفع الطفل إلى الخارج، الأمهات لا يتكلّمن؛ بل يكتفين بالصراخ، أما الأطفال فهم عندما يفلتون من الأرحام؛ يبكون. لا أحد ممَّن حولها يتكلّم، تشتاق أحيانًا للسانها، تحرِّكه في فمها لتتحقَّق من أنه لا يزال في موضعه.

«ليس مولودكَ الأوَّل؟»، سألته وهي تجلس في المكان ذاته.

ردّ بخبث:

- كيف عرفتِ؟
- لا تبدو قلقًا.
- لمَ القلق؟ مسألة طبيعيّة تحدث مئات المرّات كل اليوم.
- لكن هذه المئات لا يخصّكَ منها إلّا واحدة.

- وإن يكن. تظلّ الولادة موضوعًا سهلًا، يمكن أن تتمّ في البيت دون معاونة الطبيب. كلّ الكائنات تلد، القطط تلد دون مستشفى، ولا قابلة.

ضحكت لأوَّل مرّة:

- هل تشبِّه النساء بالقطط؟

- لا، أصِف الولادة، وليس الوالدات.

حاوَلَت التلهّي بفنجان القهوة الجديد الذي قدَّمه لها عامل الكافتيريا. أشعلت سيجارة، أشاحت بوجهها بعيدًا عنه. صار متشوِّقًا أكثر للكلام، أخذ عقله يهرول مسرعًا يبحث عن نهاية الخط الذي سيكون أوّل نقطة للإمساك بها. أخيرًا التقطها، كلمة واحدة يعرف كيف ينثرها لتصير كتابًا:

- التعوُّد.

لم تفهم ما قال. التفتت إليه مستوضحة. قال وهو راغبٌ في إشعال حضوره:

- ما اعتادت الناس عليه في الولادات الحديثة هو الذي جعلها ضرورة.

- لا أفهم.

ها هي تسلِّم نفسها طواعية، فالحوار تنازُل. عدَّل من جلسته، سحَبَ نفسًا عميقًا من سيجارته، بدأ في تركيب جمل يرغب أن تكون طويلة حتى يشرح لها معنى الكلمة التي لم تتبيَّنها:

- المدنيّة تهبُ البشر شيئين؛ واحد تنتفع به البشرية كلها، والثاني ينتفع به أصحاب رؤوس الأموال.

لم يجد عناءً في أن يلاحظ أنَّها لم تفهم معنى لما يتكلم به. قرَّر أن يزيد الشَّرح فلربما استطاع أن يشدّها للجلوس أطول:

- لا أدري إن كنتِ توافقين على أنَّ الولادة في المستشفى تكون ضروريّة ومهمّة إن كان هناك ما يعيق هذه العمليّة، مثل آلام غير طبيعيّة عند الأم، تعسُّر الولادة، عندها لا بدَّ من اللُّجوء إلى الطب والانتفاع من الحضارة. لكن إذا كان الحمل طبيعيًّا، ولا توجد علامات توحي بغير ذلك، فإنَّ الولادة في البيت تكون أسلم، أنتِ تعرفين أنَّ أهمّ مرتع للبكتيريا والفيروسات هو المستشفيات، هنا تأتي استفادة رؤوس الأموال، التي أقنَعَت الناس بأنْ لا ولادة آمنة دون المستشفيات.

التقط أنفاسه بأن سَحَبَ سيجارة جديدة، أشعلها، ودون مقدّمات سألها:

- ما رأيكِ بي؟

جعلها حائرة ومرتبكة بمَ يمكن أن تردّ به عليه؟ وبماذا تفسر سؤاله الذي وإن بدا وقحًا إلّا أنَّ طريقته في طرحه كانت غير ذلك.. كيف يجرؤ ويطلب منها أن تعطي رأيها به ولم يمضِ على تعارفهما سوى بضع دقائق مزعجة؟ تأهَّبَت للوقوف، همَّت بأن تغادر المكان بعد أن تُسمعه اللَّعنات

ذاتها التي صبَّتها عليه في المرة الأولى بهمس، لكنَّ شيئًا ما في داخلها جعلها تتمالك أعصابها:

«ماذا تعني؟» سألته بامتعاض.

- ما أعنيه أنَّ أمي ولدتْني في البيت، هل فيّ ما يحكي بأنَّني لستُ طبيعيًّا؟ وأكادُ أجزم بأنكِ وُلدتِ في البيت مثلي.
- أمي قابلة.
- هذا يُثبت بأنَّ ما أقولُهُ صحيحًا.

أخيرًا قدَّم لها نفسه على عجل:

- اسمي عيسى بركات، أعمل مدرِّسًا في الكويت، المرأة التي تلد فوق أختي وليست زوجتي، أنا أعزب، وعلبة السجائر الثانية المتروكة على الطاولة التي لم تنتبهي لها، لزوج أختي القلِق، تركني وذهب ليتابع ميلاد ابنه، ولأسعد بالتعرُّف إليكِ.

لو أنَّ ولادة شقيقة عيسى لم تتأخَّر، لما التقَت به مرّة ثانية، ولما طلب منها أن يوصلها إلى بيتها، ولما أقنعها أثناء الطريق بقبول دعوته للعشاء، ولما اتَّفَقا أن يلتقيا مرّة ثانية في اليوم التالي.

ما حدث أنَّ الولادة تأخرت إلى ما بعد المغرب، اطمأنَّ عيسى على صحَّة أخته، وتركها مع زوجها برفقة أمِّه وحماتها، خرج من المستشفى ليبحث عن مطعم يملأ فيه معدته الخاوية منذ الصباح سوى من القهوة والشاي. لمحها واقفة تنتظر وسيلة نقل تحملها إلى وسط البلد. راقب تململها من شاب قرَّر أن يؤجِّل المشوار الذي كان يقصده، والوقوف

لمعاكستها. أوقف سيارته قريبًا منها، هبط من السيارة وتوجَّه نحوها بثقة مَن يعرفها، وسألها أنْ تدلَّه على الطريق إلى وسط عمّان. لم ترُق لها دعوته بأن يوصلها في سيارته الدودج الأميركيّة التي تحمل نمرة كويتيّة، لكنَّها لم تتأخَّر في اتِّخاذ قرارها وهي ترى الشاب المتسكِّع ما يزال ينتظر أن ينفرد بها. فتح لها عيسى باب السيارة، وبخفّة صار جالسًا بجانبها، أشارت عليه إلى أين يتَّجه.

حديثهما خلال الرحلة القصيرة كان مختصرًا، سألته عن أخته، أخبرها أنها أنجبت بنتًا، وأنَّ الولادة كانت طبيعيّة. وأنه سعيد لأنَّها تأخَّرَت طوال اليوم حتى أنجبت مولودتها.

لم تحاول أن تسأله عن تفسير سبب سعادته بتأخُّر ولادة أخته، فقد كانت تحسُّ بما يريد أن يقوله. سألته عن عمله، أخبرها بأنه معلم جغرافيا في مدرسة ثانويّة في الكويت.

أوقف السيارة أمام مبنى البريد المركزي بعد أن رفضت بتصميم أن يوصلها للجهة التي تقصدها، مشيا معًا خطوات قليلة، وصلا إلى مطعم «جبري» الذي كان يقصده. أمام المطعم وجَّه لها الدَّعوة للعشاء، لم يكن رفضها حاسمًا فقد كانت جائعة، ولم تكُن لديها الرغبة في العودة إلى البيت. وافَقَت بعد إلحاح على دعوته شريطة أن يدفع كلّ واحد منهما حصّته من الفاتورة. لم يعارضها خشية أن تتركه وتغادر. بعد العشاء الذي اقتسما ثمنه، سألها أنْ يراها مرّة ثانية. تردَّدت قليلًا قبل أن تقبل أن يتناولا

القهوة في اليوم التالي في مكانٍ ما. ودَّعته واتَّجهت صوب مجمَّع تكسيّات جبل القصور.

بعض ما تُقدِم وجدان على ممارسته لا يتَّفق مع ما اعتاد عليه أهل عمّان الستينات، لقد وُهبت طبيعة غريبة، قد يكون لكثرة ما رأت من النساء العرايا، ومنتفخات البطون، ولتعوُّدها على أنَّ الفرج مهما كان حلوًا إلّا أنه ليس أحلى من المرأة، وإنْ كانت قدسيّته قد تأتَّت من رغبة الرجال باحتكاره لأنفسهم، فهذا لا يعني أنْ تعطي لهم المرأة هذا الحق. هذا ما آمنت به، هذا الإيمان هو ما جعلها لا تجد حَرَجًا في أن تصادق الرجال مثلما تصادق النساء.

لم تكُن معنيّة بكسب رضا الآخرين: الأهل، الجيران، العاملين معها، على حساب رضاها عن نفسها، لم تحصل وجدان على هذا التميُّز الذي يريحها لولا أنَّ ظروفًا كثيرةً ساعدتها عليه؛ فلا شقيق عصبيّ ودمويّ يغضب ممّا تفعله، أو حتى من وجودها في الدنيا، ولن يتوانى عن إنهاء حياتها، لينهي أصوات الناس التي تتَّهمها، ولا أب يفرض عليها الزواج مِن أوَّل مَن يطرق الباب لطلب يدها، أمّا الجيران فإنهم كانوا يقصدونها رجالًا ونساءً لطلب العون في المرض والولادة، فلم يتكلّموا عنها بسوء.

كانت مؤمنة بأنَّ حياتها ملكٌ لها مثلما أنَّ حياة كلّ واحدٍ هي ملكٌ له، كانت تسمع الكثير القبيح الذي يُقال عن اللواتي يعملن بمهنة التمريض، وتعرف أنها لو تخلَّت عن قناعاتها وإيمانها بحريّتها، لخسرت المهنة التي

تُحبّ، والنقود التي تجعلها تعيش حياة مريحة مع أمها العاجزة، ولخسرت نفسها.

لذلك لم يعنِ لها ركوب سيارة رجل غريب، والاتِّفاق على لقاء جديد معه مرّة ثانية بأنه تحرُّر، أو ثورة على مجتمعها، المسألة كانت عندها أبسط بكثير؛ إنَّها تعيش حياتها.

بعد لقائهما الثاني أحسَّت بمتعة أن يجلسا يدخنان ويشربان القهوة ويتحاوران، كانت تستمتع بحديثه وتفسيره المختلف للأشياء، وكان حذقًا فلم يجعلها تملّ من الاستماع إليه.

افترقا للمرّة الثانية دون أن يتَّفقا على لقاء جديد. بعد أيام وكانت قد أوشكت على إقناع نفسها بنسيانه، لمحت سيارته واقفة أمام المستشفى، ما إن رآها تخرج من الباب حتى أسرع إليها:

- أريدُ أن أدعوكِ للعشاء على حسابي الخاص هذه المرة.
- حسبتُ بأنَّكَ تنتظر مولودًا جديدًا.
- أختي ليست أرنبة.

أكمل: «انتظرتكِ أكثر من ساعتين».

لم يعُد عيسى غريبًا، فهذا لقاؤهما الثالث. لم تنتظر منه أن يفتح لها باب السيارة، استلقت على الكرسي الكبير بجانبه، وأرخت ساقيها.

عيسى بركات الرجل كثير الكلام، دفَعَها بعد أن تكررت لقاءاتهما معه للإعجاب بأفكاره، وسهولة علاقته بالحياة، جعلها ترى الدنيا مِن زوايا جديدة لم تكُن قد التقطتها عيناها مِن قبل. صارت تنتظر أن يفاجئها

بحضوره غير المتفق عليه بشوق، تريده أن يتكلم، ينبش في كل ما يراه، سواء في حضورها أو وهو بعيد عنها، يحكي عن الناس وكنه الحياة وجمال وقبح الأشياء، يسرد لها قصصًا يؤكد لها أنه عاشها أو شاهدها. وإن لم تكن تصدِّقه، إلا أنه كان يمتعها بكلماته، فتح في عقلها أبوابًا لإخراج أسئلة كثيرة كانت تدور في خاطرها، لكنها لم تكن تقف عندها، تتركها تعود للمكان الذي جاءت منه دون ندم عليها. كم مرة فكرت بكنه الخَلق عندما تمدّ يديها لتلقُّف مولود جديد، لم تكن تفكر أنَّ هذا المخلوق البديع هو نتاج لعلاقة جنسية بين رجل وامرأة، بل لا بد من وجود ما هو أكثر أهمية من هذه التجربة الناجية من بين ملايين التجارب الهالكة، ولا بد أن فيها قيمة أعظم.

صارت تسأله في كل مرة يلتقيان فيها عن كنْه وجودها، ووجود البشر؛ تزاحُم الناس، والعربات، وباعة البسطات، المقاهي المكتظّة، طلّاب المدارس الذين تراهم منذ الصباح وهم يتسكّعون أمام سينما «زهران» أو «فلسطين»، يتحرّكون بلا هدف، يحملون كتبهم تحت آباطهم، يدخِّنون السجائر بطريقة استعراضيّة، يتناولون سندويشات الفلافل وشراب «سحويل كولا». تسأله؛ لماذا يهربون من المدرسة هاجرين أحلامهم في أن يصبحوا أطباء أو معلمين أو مهندسين؟ ولماذا تكتظّ المقاهي بالمتعطلين، بينما البلد يحتاج للعمّال؟ وماذا عن النساء المنتفخات الخائفات من آلام الوضع، الناسيات للمتعة التي أوصلتهنّ إلى هذه الحال؟ ولماذا يوجد أطباء مرضى وأطباء مُعالجون؟ هل كل هذه

المخلوقات نتيجة تناسُل عشوائيّ؟ تعود وتُكمل أسئلتها؛ وكأنها في نزاع حاد معه، وماذا عنّي أنا؟ لماذا لم أفكر من قبل إلى أين أمضي بعمري؟

يردّ عليها دائمًا ببرود: «لا شيء يحدث عبثًا، لا في الميلاد ولا في الموت ولا في المسافة الفاصلة بينهما، كل شيء من صنعنا نحن البشر».

عندما أخبرته بأنها لا تفكِّر بالزواج، سألها: «هل عندكِ بديل آخر؟»، نبَّهها بخبث إلى أنَّها يجب أن تفهم أنَّها لن تظلَّ شابّة، وحلوة. سألها عن خططها للشيخوخة إنْ حدث وعاشت طويلًا مثلما يتمنّى لها؟ وبماذا ستملأ العمر عندها؟ قال لها بثقة الفلاسفة: «العمر لحظة مقدّسة، يجب ألّا يُفرَّط بها».

لم تنسَ وجدان حوارهما الذي فتح في وجهها أبوابًا عريضة للبحث عن كنه وجودها، وأخافها من قادم العمر، وتركها مزروعة بالتَّناقض كلَّما تذكَّرت أنَّ مَن دفعها لهذه المُواجهة مع الحياة، هو مَن عمل جاهدًا على الهروب من هذه المُواجهة. تركها وحيدة تعاني ما تعانيه من عشقها الذي لم يمُت، ومات هو.

أيام انقضت سريعًا وسافر بعدها إلى الكويت. سألها إن كانت سترُدّ على رسائله إن فكّر أن يكتب لها؟ ابتَسَمَت، زمَّت فمها؛ «إن وجدتُ الوقت».

لرسائله فعلٌ عجيبٌ. الزاوية القصيّة في مركز استقبال المستشفى، المجهولة لها، تلك البقعة التي لم تكُن تعلم بوجودها صارت وجهتها

الأولى كل صباح عندما استقبلها عامل عجوز وهو يحمل بيدِه مغلَّفًا أزرق مدَّه لها بعد أن تحقَّق من اسمها وأخبرها بأنه قد وصلت لها رسالة.

هذا العجوز صار أجمل ما تراه وجدان خلال النهار. صارت تعبر بمكتبِه لتسلِّم عليه، وإنْ كانت قد وصلت إليها رسالة عيسى منذ يوم أو يومين، إلّا أنَّها كانت تأمل بأنْ يتراجع عن تعهُّده بكتابة رسالة واحدة لها كل شهر، وأن يكتب لها في كلّ يوم.

عندما يضع العاشق الورقة البيضاء أمامه، ويقبض بأصابعه على القلم، لا يعود موجودًا، فهو ليس الشخص ذاته الذي يملي الحروف على الورق، لأنَّها تنطلق منه دون إرادته، تنبعث من روحه، لتفضح أمرها بالحبر الذي لا يُمحى. الحقيقة التي يكتشفها العاشق عندما ينتهي من كتابة مشاعره التي تُبعث رغمًا عنه؛ يفاجئه صدقها وجمالها قبل أن يُفاجئ المتلقّي لها. يهتزُّ العاشق عندما تعيده كلماته لذكريات حسِب أنَّهُ قد نسيها، وعندما ينتبه إلى أنَّهُ قد نزع الخجل عنه، وعرّى ذاته قطعةً قطعةً وكأنه يدخل في تجربة خياليّة تفتنه، يسحره حدوثها، وخروجها من صدره، توهمه أنه في فرح أزليّ يخاف أن يفقده لجمال سحره، فيسرع في طيّ الورقة، يهندس مرقدها داخل ظرف البريد فيعود له حضوره عندما يملي عنوان المُرسَل إليه لكيلا يخطئ به.

يظلُّ يراوغ عقله، يفلت منه إنْ ألحَّ عليه بأن يتريَّث ويتذكَّر ما كتبه، فلربَّما تهوَّر في كشف عواطفه، أو بالغ في وصف مشاعره. يبلِّل بطرف لسانه طابع البريد، يُلقي الظرف في فمِ الصندوق الحديديّ الأحمر

المنتصب على قارعة الطريق، يواصل سيره، يشدّ ساقيه، لا يعود يرى اليافطة المكتوب عليها «البريد الدولي»، يمضي بعيدًا فلا يعود الصندوق الحديديّ على مرمى نظره. في تلك النقطة يأخذ العاشق بالتروّي، ويصير يسترجع ما كتبه، يؤنِّب نفسه على كلمة، أو كلمات شوقٍ جارفٍ، أو اعترافٍ جريء، بعدها يستريح.

التجربة التي تعبرها وجدان مع كل رسالة كانت تكتبها لعيسى لم تكن تختلف كثيرًا عن تجربته. لم يمنعها فرحها العظيم برؤيته وقد غرق حتى جرابه بالمطر من أن تبدي استغرابها من توقيت هذه الزيارة التي في غير موعدها. انقَضَت رسائل كثيرة قبل أن تراه واقفًا في المكان نفسه الذي اعتاد انتظارها فيه، لم تكُن حادثة متوقَّعَةً، ولم تكُن تحلم أو تتخيَّل أن يحدث وتلتقي به قبل الصيف، لقد تعايَشَت مع فكرة انتظاره والاكتفاء برائحته التي يبعثها في رسائله. لقد تحيَّن العاشق المشتاق، عطلة نصف السنة الدراسية، تزوَّد بما يكفيه من الوقود، أشعَلَ محرك سيارته، وقطع أرض العراق كاملةً، من صفوان إلى بغداد، إلى الرطبة دون توقُّف. نال قسطًا من الراحة على الحدود وأكمل إلى عمّان.

تناول يدها بكفِّه المبتلّة الباردة، قال: «اشتقتُ لكِ». ودَّت أن تصرخ: «اشتقتُ لكَ كثيرًا»، لكنَّها اكتفت بأن قالت بصوتٍ خافتٍ: «اشتقتُ لكَ». سألها إن كانت قد تغيَّبت عن العمل؟ أجابته بالنَّفي، قال إنَّهُ انتظرها مرَّتين.

- لماذا لم تكتبْ لي لتخبرني بأنَّكَ قادم؟

- أحببتُ أنْ أفاجئكِ.
- لماذا لم تسأل عنّي في المستشفى؟
- خفت.
- ممَّ؟
- أنْ لا أجدكِ.
- ألم تسمع بشيء اسمه «المناوَبات»؟
- أعرف، لكنَّني لم أرغب في أن أخسر...
- تخسر ماذا؟
- جَمال هذه اللَّحظة.

ومضى بهما جمال تلك اللحظة سنوات.

***

العتمة شديدة، لا ضوء ينبعث من الأرجاء، ولا صوت سوى صدى طَرْقات كعب حذائها العالي على الرَّصيف. لم تتبيَّن كم خطوة قطعت بعيدًا عن «الريفيرا»، وكم يبعد عنها الدوّار الثاني. السكون الثقيل جعل من الليل كائنًا متوحِّشًا يتربَّص بالعابرين إنْ تجرَّؤوا وعَبَروا.

لا حياة في الظلام سوى للخفافيش واللصوص، هم الوحيدون الذين لا تلجمهم الحرب.

سقط على عينيها ضوء ثقيل زاد في عماها: «Stop» صرخ صوت.

بحركة لا إراديّة رفَعَت يديها عاليًا محاولة أن تتفلَّت من الضوء الذي أعماها، جمدت في مكانها. خطوات ثقيلة تقترب منها، النور المهتزّ يصفعها على وجهها وكأنه الكرباج: «Where Are You Going?»

«Home»، ردَّت بخوف وبسرعة.

اقتَرَبَت الخطى أكثر. لمَحَت من انعكاس ضوء المصباح الذي يعذِّبها وجهًا مستديرًا أحمر معلّقًا فوقه قبعة عسكريّة، يحمل على كتفه بندقيّة، واضطجع مسدَّس في قِرابه المغلق على جانبه وكأنَّ الرجل ذاهبٌ إلى الحرب.

- You speak English?
- Yes
- Jordanian?
- Yes

أدار وجهه وصرخ:

- Ahmad

بثوانٍ بَرَزَ رجل يرتدي بدلة مدنيّة وربطة عنق، اقترب منها حتى أوشك أن يلامسها، تبيَّنت ملامحه؛ أردني مثلها، عادت لها أنفاسها التي قطعها العسكريّ، أنزلت يديها إلى جنبيها:

- ماذا تفعلين هنا بهذه الساعة؟

سألها «أحمد» بعصبيّة.

- أريد الوصول إلى بيتي.

- الطرق مسدودة، ولا يوجد سيارات. أين تسكنين؟
- جبل القصور.
- المسافة طويلة إلى هناك، ارجعي حيث كنتِ.
- «يجب أن أصل إلى البيت» قالت بتوسُّل.

ردَّ بصوت خافت مهدِّدًا وهو يشدّ على أسنانه:

- انتبهي، لديهم أوامر بإطلاق النار على أيّ شيء يتحرّك قرب السفارة. عودي.
- لا أستطيع، يجب أن أذهب إلى البيت.
- كفى، سوف أمشي معكِ إلى الدوّار الثالث.

عاد «أحمد» إلى الرجل المسلَّح الذي كان يراقبهما بانتباه، طلب منه الإذن بأن يعيدها حيث كانت.

«ماذا تفعلين هنا في هذه الساعة؟»، سألها وهو يسير قريبًا منها.

- أنهيتُ عملي متأخرة.
- «هل تعمل الناس في الحرب؟» قال مستنكرًا.
- المستشفيات تعمل في كلّ الأوقات، أنا ممرِّضة.
- لا يبدو عليكِ ذلك.
- كلّا، أعمل في مستشفى الولادة.

هزَّ رأسه:

- «أهه، لا تبعد كثيرًا. يمكنكِ المبيت هناك» قال وهو يمضي أمامها.
- هذا ما سأفعله.

شدَّت خطواتها لتلحق به، عندما أحسَّت بأنَّها صارت قريبة من الدوّار الثالث سألته مستنكرة:

- لماذا صاحبكَ الأجنبي مسلَّح؟ ومَن أعطاه الحقّ بإطلاق النار على الناس مثلما تقول؟
- هذه سفارة.
- أعرف، السفارة الأميركيّة. لكن مَن أعطاه الحق بأن يمنعني من المشي في بلدي؟
- يبدو لي أنكِ كثيرة الكلام، أرض السفارة تعتبر قطعة من بلدها.

قالت ساخرة:

- هذا يعني أنَّني كنتُ في أميركا الآن.

«اذهبي بحالك» ردَّ عليها بنفاد صبر.

تركها تمضي وحيدة، أدار ظهره وعاد من حيث جاء. مسافة قصيرة تفصلها عن ذيب القَلِق من اختفائها المفاجئ.

«ها قد عدتُ» قالت وهي تدفع باب الزجاج وتعود من جديد إلى «الريفيرا».

فزَّ من مكانه مسرعًا، كان يبدو عليه الاهتمام والضيق:

- شغلتِني، خرجتُ أبحثُ عنكِ، لم أجد لكِ أثرًا. أين كنتِ؟

«في أميركا» ردَّت عليه وهي تُجبر نفسها على الضحك، «حارس السفارة لم يسمح لي بالإقامة هناك أو حتى بالعبور من أمامها».

«أيّ فعلة مجنونة هذه التي أقدمتِ عليها؟» قال موبِّخًا، وأكمل: «هل تصوَّرتِ أنَّ الطُّرُق آمنة؟».

«اسكب لي كأسًا» قالت وهي تمشي صوب الهاتف الذي ظل صامتًا كلّ النهار. لقمته قرشًا، أدارت بأصبعها رقمًا، انتظرت طويلًا، أعادت المحاولة، إلى أن سمعت تكّة رفْع السماعة وصوت صاحب البقالة المجاور لبيتها. اطمأنَّت منه على أهل الحارة وعلى أمِّها. طلبت منه أن يبلّغ إحدى الجارات أن تبيت مع أمِّها لأنَّها لن تقدر على العودة إلى البيت.

لم يكن قد انقضى على رحلتها إلى أميركا سوى بضع دقائق، عادت بعدها ظمأى، وترغب في المزيد من البيرة، والكلام.

- هل ما زلتِ ترغبين في قلّاية البندورة؟

«لا» ردَّت وهي تعود لمكانها الأوَّل، «أريد أن أسمعكَ تحكي، وأريد أن أتكلّم».

أفكار شتى تتخبَّطها، ما الذي تفعله هنا؟ ما معنى ما حدث معها عند السفارة؟ أهكذا هي الحرب؟ إنها لا تشبه الحرب التي ما تزال تذكر بعض تفاصيلها، تلك التي جعلت أباها يترك فلسطين ويأتي إلى هنا؟ ولا الحرب الغريبة التي خطفت منها عيسى؟ ألم يكن موت عيسى المفاجئ حربًا؟ ثم لماذا صارت تفكِّر الآن أنها منذ وَعَتْ على الدنيا والعمر يمضي بها من حرب إلى أخرى؟

كيف يكون شكل الحرب الحقيقيّ؟ لو أنَّ عيسى ما زال حيًّا لاستفزَّ فيها الرغبة في البحث عن جواب لسؤالها، فهو لم يعتَد أن يعطيها الإجابات بقدر ما كان يضعها أمام الكثير من الأسئلة الكثيرة المحيِّرة. هل كان يختبرها، أم أنه كان يريدها أن تعرف كيف تعرف؟ لماذا لم يحكِ معها عن معنى الحرب التي خاضها مع مرضه، قبل أن تأخذه منها؟

«أشتاق إليكَ الآن أكثر، أريدكَ بجانبي، يا الله كم أنا خائفة!».

- أنا خائفة.

- «وأنا خائف، كلنا نخاف في الحرب» قال ذيب مواسيًا.

دون تفكير فزَّت عن كرسيها، وألقت بنفسها على ذيب أحاطته بقوّة بذراعيها، بقيت متعلِّقة به دون أن تعي معنى ما فعلته. تعطّل عقلها فجأة، سلّمها شيءٌ ما في داخلها للإقدام على هذه الحركة التي كان دويُّها على الاثنين أشدّ من قصف الطائرات.

هي حادثة للنسيان..

لم يعرف أيّ منهما كم عدد الثواني التي قضياها متلاصقين. انسحبت بهدوء، انهارت على مقعدها، ضمَّت وجهها بكفَّيها وبكت بصمت.

***

أصوات انفجارات عالية هزَّت المدينة قبل أن يخمد صوت زامور الخطر الطويل الذي كان ينبعث من صوب مركز الشرطة القريب من السفارة الأميركيّة، ومن السيارة التي كانت تتجوَّل بسرعة في الشوارع.

انقطع صوت المذيع الذي كان يعلن بلاغًا عسكريًّا جديدًا، وأخذت اللحظات تمضي ببطء قاتل.

حار ذيب في ما عليه أن يفعله، حرَّك مفتاح الراديو، ليس سوى السكون. هدوء بشع. ظلَّ متمسمرًا في مكانه وكأنه ينتظر حدوث أمرٍ يكسر حالة القلق الذي يتلبَّسه. صارت وجدان تبحث عن ظلِّه على ضوء الشمعة الذي أوشك أن يُطفأ، بالكاد صارت تراه. طالت لحظات الترقُّب، استفحل السكون في «الريفيرا». عادت أصوات الطائرات تخترق حاجز الصوت، توالت الانفجارات، أصوات مفزعة تتوالى بتلاحُق مِن الجنوب:

- «هل كسروا حاجز الصوت؟» سألته وهي مرتعبة.
- «لا.. هذا قصف حقيقيّ» ردَّ بثقة.
- كيف عرفت؟

«لا أعرف»، قال بغضب خافت، «أتخيَّل ذلك». بعد صمت، بُعث صوته ثانية:

- أعتقد أنهم يقصفون الإذاعة.

انقضَّ عليهما سكوتٌ عميقٌ، كأنَّ مَن أسكت صوت الإذاعة والمذيع قد سمعهما، وأحسَّ بخوفهما، فقرَّر أن يجهز عليهما أيضًا. سكونٌ لا يحرِّكه سوى تلك الرَّجفة التي كانت تهزّ بدن وجدان، كلّما سمعت صوت انفجارٍ يأتي من بعيد.

طالت دقائق الصَّمت. لم يبارح ذيب موضعه. لم يكُن الصمت

يحاصرهما وحدهما باستبداده وقسوته، بل كان يلفُّ عمّان كلها. لا صوت يجيء من الخارج، حتى إنَّ السيارة التي تحمل الميكروفونات على ظهرها لم يعُد يُسمع لها صوت، وكأنَّها اكتفت بما فعلته، وبما زرعته من خوف. ظلَّ الراديو راضخًا لقانون الخَرَس الذي أصاب كل شيء. بقي متحجِّرًا، لا كلام، لا بلاغات عسكريّة جديدة، ولا أغنيات.

«اطفي الضو».

«من أين يجيء هذا الأمر؟ أين يختبئ صاحبه؟ كيف يعرف أنَّ الأضواء أُشعلت؟» صرخت. تمنّى ذيب في سرِّه؛ لو أنَّ واحدة من الطائرات التي تجوب سماء عمّان متنزِّهة تتسلّى باقتناص أهدافها أن تُسكت هذا الصوت الناشز الذي ما يزال ينطلق صدّاحًا دون كلل، وكأنه يوزِّع أمرًا إلهيًّا على الناس بأن «تطفي الضو».

فتَّش عن وجدان، لم يعُد يرى منها غير ظلال معتمة كانت تجيء من ذاكرته، ضوء الشمعة الوحيدة خبا تمامًا، شَعَرَ بشوقٍ جارفٍ للنَّظر إليها، ولأنْ يعيدها إليه. تململ، فكَّر أن يبحث عن شمعة أخرى يضيئها، لكنه لم يفعل. عزم أمره أن يقدم على فعلةٍ رعناء. لن يهدر اللحظات التي تشاركه إيّاها هذه المرأة، لن يكملها في تأمُّل تفاصيلها داخل العتمة. يرغب بشدة في النَّظر عميقًا في شفتيها وهي تحكي، وعينيها وهي تجول باحثة عن بقعة آمنة.

حسم أمره أخيرًا؛ «ما الذي سيفعلونه؟ أنا مَن سيصرخ بهم إن جاؤوا، سوف أتحداهم، وأخبرهم أنيّ لن أرضخ لأوامرهم، إن حاول أحدهم أن

يطرق الباب، أو أن يدفعه عنوة، سوف أردعه، سأسدُّه في وجهه وأتركه يصرخ في الخارج، سوف أجعل صراخه معزوفةً تحرِّك السكون المقيت الذي يستلبنا».

رفع يده، تحسَّس بأصابع عمياء الجدار، لامس إبريز الكهرباء، ما يزال معلّقًا في مكانه، باردًا، متوحِّدًا. وبتكّة مرتجفة صغيرة من أصبعه، انهمر النور عليهما. تريَّث في موقعه، لم ينفجر الصَّوت. انتظر ثوانيَ أخرى، لا أثر لحركة أو حياة سوى صوت تنفُّس وجدان القلق.

«لقد دُكَّت المدينة. لربما أنَّ القنابل التي أسقطتها الطائرات في جولتها الأخيرة أسكتت صاحب الصوت المُفزع، أو قد يكون فرَّ مؤثرًا السلامة، أو أنه ملَّ من سماع صوتِه؛ فسكت».

أطال انتظاره، ليس سوى السكون، وأصوات انفجارات متباعدة قصيّة، نظر صوب وجدان كانت ما تزال في مكانها وقد أُضيف لوجهها ملمحٌ جديدٌ؛ الدَّهشة. لم تفكر بأن تتقمَّص دوْر صاحب الصوت وتأمره أن «يطفي الضو». تملَّكها إحساس الغائب بفرحة الرُّجوع، أحسَّت بأنَّ «الريفيرا» قد عادت لها، بعد أن كانت قد افتقدت الكراسي والطاولات والبار و«لوريل» و«هاردي»، ووجه العجوز الأدرد المبتسم، وكأس بيرته العملاقة. لقد افتقدت لـذيب الذي كان يتأمَّل الخوف الذي يحتلّها وقد أخذ يتبخَّر ويتلاشى. ابتَسم لها؛ الابتسامة نفسها التي تخصُّها.

***

سكينة الليل العميقة تجعل من الهمسات ضجيجًا، تتغلغل في الصدور، لتستلّ الأفكار منها قبل أن تصبح كلمات تنطقها العينان واحمرار الوجنات، واللَّعثمة الصامتة. لم تنبس بحرف، لكنه سمعها تقول: «اشتقتُ لكَ».

مشى نحوها بخطى صغيرة إلى أن صار قريبًا منها، نظر في وجهها: «اشتقتُ إليكِ أنا أيضًا».

وحطَّ صمتٌ جميلٌ على الكون.

ظلَّ واقفًا بثباتٍ فوقها والطاولة، وكأنه يريد أن يعوِّض الدقائق التي أخذتها العتمة منه. لم تحاول أن تحثَّه على فعل شيء، لا ترغب في أن يملأ كأسها، ولا أن يشعل لها سيجارة، أو يطعمها وقد أحسَّت جوعًا خفيفًا يتململ في معدتها. راقت لها كثيرًا وقفته ونظراته التي كانت تحطّ عليها مثل نسمات ناعمة، وراق لها أكثر عبارته الارتجاليّة التي نطق بها، قالت بصوت هامس:

- اشتقتُ لك.

ارتدَّ خطوة للخلف، انتظر أن تقف وتضمَّه مرَّة أخرى، فكَّر أن يبادر هو لفعل ذلك، لكنَّ ثباتها على كرسيها ردعه ولجمه عن أن يُقدِم على مغامرة كهذه. رجع خطوة ثانية وما زالت عيناه معلَّقتين بها. وما تزال هي تراقب خطوته التالية. أدار ظهره لها، بثانية واحدة اجتاز أرض «الريفيرا»، لوى عنقه من تحت وجه العجوز الأدرد. صارت بعيدة قصيّة عنه، هتف: «سأكمل إعداد وليمتي».

ليست قلّاية البندورة ما أخذه وأطال غيبته. رغبته في الاختلاء بنفسه ولملمة شتاته المشظّى هي ما جعله يتأخر بالعودة، وأن يظلّ محملقًا بالثوم والفلفل والبندورة وهي تغلي فوق النار دون أن يرى نضجها أو يشتمَّ رائحتها النفّاذة.

دون أن يكمل إبحاره في السعادة التي تغمره، فكَّر بأنه موهوم، يجب أن يتنبَّه فوجدان التي تجلس في حانته الآن، ليست هي المرأة التي اعتاد حضورها. وهذه الكلمات الحلوة، والنظرات المشوّقة، والحضن الدافئ ليست سوى حلم.

«قف. إيّاكَ أن تتمادى»، زعَقَ في داخله، «هذا يوم يمضي، فلا تنتظر سواه».

تعجَّله صوتها من بعيد وقد أخذت تحسُّ بالوحدة:

- أين غبت؟

انكشف لها من وراء الساتر يحمل وعاءً ينبعث منه بخارٌ أبيض ناعمٌ توسَّط به الطاولة. تناول بخفة صحنين وشوكتين وسكينين، وزّعها بينهما. تناول من خزانة صغيرة تحت البار أرغفة خبز، ناولها إيّاها، وبثقة الطبّاخ الماهر، سكب الطعام بمغرفة صغيرة بصحنيهما:

- Bon appetit. صحة وعافية.

نحَّت الشوكة والسكين جانبًا. شقَّت رغيف الخبز نصفين، قطعت جزءًا، غمسته بالبندورة الساخنة حتى أصابعها، تناولت بشراهة لقمة طعامها الأولى هذا اليوم. كانت أصابعها الطويلة تتحرّك بين الصحن

وفمها وكأنَّها ترقص. أكثر ما تحبُّ، وما تتربَّصه؛ لحظة حريّة تنقضّ عليها ملء نفسها. ببساطة وراحة، وبحركة هجينة على المكان؛ كسرت بروتوكولات الطعام المشدَّدة التي أضحت ثقافة واجبة التطبيق في مطاعم عمّان الغربيّة.

ليس إحساسها بأنها قد سدَّت جوعًا لم تكن تشعر به هو ما دفعها للولوج إلى نفس رفيقها بأسئلةٍ لم تكن تعنيها وهي تتناول قلاية البندورة بشهيّة. سألته إن كان متزوجًا، أجابها بالنفي.. مُطلّق؟ عاشق؟ سعيد؟ إجابته كانت واحدة؛ النفي.

«ما الذي تعيش من أجله؟» ألقت عليه السؤال الأكبر الذي صنعته إجاباته السابقة.

- لا أعرف.
- أنتَ حالم إذن؟
- أنا لست كذلك.
- «هل يوجد إنسان لا يحلم؟» قالت بصوتٍ عالٍ.
- «أنا» ردّ بهدوء، أكمل وهو يرى دهشتها المبالغ بها: «لا أحبُ الأحلام، لأني أكره فكرة عدم التحقُّق، الأحلام عندنا عصيّة على أن تصبح واقعًا».

كانت تحسب أنَّها عندما تسأله عن الأحلام التي تراها القيمة الحلوة الوحيدة للعيش، ستتعلَّم منه شيئًا جديدًا، وبأنَّهما سينغمسان في حوار مثير. «أين يكمن جماله إن لم يملك نعمة الحلم؟».

- «أنتَ تتسلّى بي» قالت وهي تضحك. وأكملت: «الأحلام أرخص بضاعة في سوق العمر».
- «لا أحبُّ الرَّخيص» قال بجديّة وكأنه يحسم أمرًا عظيمًا.

ولكيلا تزيد في الانفعال الذي بدا أنه يرغب فيه، قالت:

- لو أنَّني أعيش على طريقتك لن أجدَ ما أفعله غير أنْ أحلم.

تبسَّم بمرارة وهو يمضغ لقمة كبيرة كان قد أجهز بها على ما تبقّى في صحنه من الطعام:

- الأحلام خدعة.
- لمَ لا تكون أملًا؟
- مهما أعطيتُها من ألقاب تظلّ خدعة. لا أحبُّ أنْ أُخدع مِن أحد، فكيف أَخدع نفسي؟

لفظ كلماته الأخيرة من فمه دفعةً واحدة، كمن يرغب في إغلاق الكلام في هذا الموضوع.

- من المحزن أنَّنا نملك الكثير من المشاعر والآمال والأحلام التي لا نستعملها! أبعَدَت صحنها عنها وكأنَّها تعلن بأنَّها قد اكتفت، وتابعت، العمر قصير، ومع هذا ينتهي، لماذا حتى نضيِّع منّا هذه الفرصة؟

أكثر ما كانت ترغب به في تلك الساعة لا يزيد على رغبتها في بعث الروح اللطيفة التي كانت في ذيب منذ أن دخلت هنا، وأنْ يتجاوز عن أسئلتها التي ظنَّت بأنها -وإنْ كانت واهية وضبابيّة- ستكفي لإخراجهما

من الجوّ الذي تصنعه الحرب في الناس. رجع عقلها يفتش عن أفكار جديدة وقد تملَّكتها رغبة وحشيّة لا لتهشيم الملل والخوف فحسب، بل للنَّبش في نفس هذا الكائن الذي صار غامضًا فجأة.

«هل حقيقةً أنَّ الأحلام خدعة؟»، تساءلت في سرِّها، «إنْ لم تكُن مثل ما يُقال عنها؛ نصف الحقيقة، فهي في أدنى درجاتها أمل المكسورين».

نسيت أمر ابتسامته الفاتنة، وقلّاية البندورة، وتمرُّده الجميل على أمر إطفاء الضوء، وشُغلت بإنسان غير ذاك الذي عرفته اليوم، وغير ذيب «البارتندر» الآلي الذي تعرفه منذ سنوات. فأيّ شخصيّة ثالثة هذه التي ستتعرَّف عليها اليوم فيه؟ طغى خيالها الخائف على تفكيرها، أحسَّت برجفة خفيفة هزَّت قلبها:

«هل يكون مجنونًا؟ أم فيلسوفًا؟ أم أنه يتصنَّع هذه الوجوه؟ أريد أن أهرب من هنا».

- ما بكِ؟ أين ذهبتِ بأفكارك؟

سألها بعد أن لاحظ شرودها.

- ليس بعيدًا. أفكِّر بأمي.

الفصل الثالث

ماذا تفعل هنا؟

هي مَن ترغب في أن يفتح لها أبواب صدره، وأن يعترف أمامها بأنه مأزومٌ مثلها، يحكي لها ما لا يُحكى عن أسباب أزمته، لأنه إن فعل فسوف يعينها على نفسها، وينيخ بناقة عمرها الهائمة بلا هدى ويجعلها تقعي هنا الآن، على كرسي، قرب طاولة، داخل حانة مفتوحة لها وحدها. إنْ كشف لها عن نفسه، أو إن دفعته هي ليفعل؛ سوف يفتح لها بوّابة للسلام والتصالح مع عمرها.

لم يتبقَّ لها غير أن تختبر قناعاتها، وتجرب أن تكون مثله؛ إنسانا ينتظر ما تحمله الدنيا له دون أن يفتش عنه، قبل أن يكشف ذيب عن جهلها وبراءتها، ويعرّي فهمها المسطّح لمعنى كيف تُعاش الحياة، ليعيدها إلى المربع الأوَّل الذي غادرته منذ سنين؛ الشك هذه اللعنة التي لا تزال تحلّ بها منذ أن فارقها عيسى، فلربما وجدت عند هذا «البارتندر» ما يستفزُّها ويدفعها لأن تعدو ثانية في عمرها، تبحث عن مدخلٍ جديد للحياة.

هل يملك هذا الخمّار أجوبة على ما يشظّي حياتها؟ أم أنَّه حاوٍ مبدع يحاول إيهامها بأنه هو الذي يرى؟ ليس عنده شيء يجعله مختلفًا، غير أنه بحكم مهنته يعرف كيف يقرأ ما يخبِّئه الزبائن تحت أشكالهم وملابسهم وسياراتهم إن ملكوها.

«احكِ لي عن حياتك» قالت بكلمات مليئة بالتَّوسُّل.

استفزاز أنثوي لم يكن ذيب وحده المعني بأمره، وإن كان كأنَّهُ يطلُّ على شرفة عقلها وينظر إلى ما تفكر فيه، فعندما تبدأ الخمرة بفعلها يأخذ السكارى بالانكشاف؛ يقولون ما لا يُقال، يبوحون بأسرارهم ونقاط ضعفهم وخوفهم. بالخمرة يبكي الرجال كالرجال، أو يضحكون كالأطفال. هو الذي يرى ما لا يُرى. هدوؤه، وتماسكه المصطنع كلما سمع خبرًا جديدًا في الراديو، عدم اكتراثه للطائرات التي تستبيح سماء عمّان وتدكّها بقنابلها، ورُعب زبونته منها، قراءته لما يحدث وثقته بأنه يعرف القادم، هل كل هذا ادِّعاء رجولي يكمل به سطوته على الأنثى الخائفة؟ أم أنَّهُ وعيُه الحقيقيّ؟ تريَّث طويلًا قبل أن يردّ على سؤالها الذي جعله يقفز بلمح البصر إلى عمره الأوَّل وبدايات التذكُّر.

ما الذي فعله أو قاله حتى جعلها تفكر في أن تدفعه ليشرّع أبواب عمره على مصاريعها في وجهها؟ سنين كثيرة انقضت وهو يصارع التذكُّر بشراسة، يحاربه لينسى وليمضي بعمره مثل البشر.

لا بأس، هو واعٍ لحدّ أنْ يعرف أنَّ الشرخ الذي خدش عمره منذ بدايته، حتى وإنْ استطاع أن يتغلب عليه ويدفنه، لكنّه لن ينساه فقد صار شيئًا منه، أو لربما الشيء الأكثر حضورًا فيه، سوف يظلّ مختبئًا بين خلايا دماغه حتى وهي تموت ويحيا غيرها. ها هو العمر يلوح من بعيد، يتفجَّر في داخله وكأنَّهُ نيزكٌ أُفلت من مداره الأزليّ، وارتطم بقوّة سديميّة ببقعة صغيرة نائية، مهجورة، مجهريّة في دماغه وأعاد له الذاكرة.

لم يحاول أن يبحث طوال حياته عمَّن يحكي له عنه، لم يخطر بباله أنْ يكون هذا الذي يحكي له، لو فكَّر أنْ يفعل؛ واحدًا من زبائنه. لم تكن سيرة حياته مهمّة ولا قيِّمة، لكنها غرائبيّة وتخصّه وحده. له حياة مثل باقي البشر؛ صغيرة، تافهة، منسيّة إلّا من تلك التجربة القصيرة الموؤودة في أعماقه. لم تُتِح له علاقاته الطارئة المحبوسة في دائرة حانته الصغيرة أن يجد مَن يحكي له، ولا حتى إن كبُرت حانته وصارت وسع الأرض. لم تلد الأمهات بعد مَن يجعله يجلس أمامه ويعترف، تكفيه ذاته التي دُجِّنت على النسيان، لن تأتي هذه المرأة بكل ما فيها من جمال في يوم العزلة المخيف هذا لتطلق لسانه، وتستفز ذاكرته ليفضح عمره.

لم يؤمن أنه سوف يأتي عليه زمان يعبُر فيه إلى ناصية جديدة من العمر يجد فيها خلاصه. ليس بغضه لحياته هو ما منعه من أن يخوض تجربة الرجوع إلى عمّان بالحماسة ذاتها التي دخلها فيها أوَّل مرّة، بعد أن هجرها واستوطن بيروت. عندما عاد إلى هنا باندفاع وبلا وعيّ، كان مصدقًا أنها ستكون آخر رحلاته، وأنه قد قارب على النهاية والعبور أخيرًا في داخل المتاهة الأصعب؛ انتظار الموت.

لم تقع الحرب اليوم، ولا تقطَّعَت السُّبُل بوجدان، ولم تجد أمامها بابًا مفتوحًا غير باب حانته؛ مصادفةً. أشياء وأحداث تجمَّعت بدهاء لكي يخرج عن صمتِه ويعود لذاكرتِه. لن يُدهشه إن كان كل ذلك يحدث الآن ليدخل أخيرًا إلى عمره الرابع.

هناك خلف زجاجات الخمر المتلوِّنة المحتارة، ظلّ يتمترس بحياة لا يفعل شيئًا فيها غير الانتظار. في كل ليلة، حين يغادره آخر زبون، يشعره النعاس الذي يداعب أجفانه أنَّ النوم قادم يتهيَّأ لاستقباله. يغتسل، يتمدَّد على السرير، يتناول كتابًا عن الكومادينو القريبة، يشعل سيجارة، وينتظر بلا جدوى، ينبِّهه ضوء الفجر دون أن يعلن النوم عن حضوره.

أضحت مهمّته اليوم أصعب. وجدان ليست سوى بداية مؤلمة للغوص في تاريخه. ها هي تدفعه لأن يكشف حياته المستورة، تريده أن يكشف عريه لها، وهو لا يريد أن يكشف عريه لأحد ولا لعامل الحانة الذي يعيش فيه. لن تطوِّعه سيدة جاءته زائرة، ثم صارت حلمًا، لا بل كابوسًا، تجلسه على كرسي الاعتراف، وتستفزّه ليكنس من داخله كلّ آثامه التي اقترفها بحق نفسه، ليخرُج متطهِّرًا، بريئًا، نقيًّا، ويدخل عمرًا جديدًا أكثر راحةً وجمالًا.

لو أنه كان يجرؤ على الخوض في البحث عن أسباب قبح حياته لعرف مبكّرًا أنه مشارك فيه، لماذا ظلّ متذكِّرًا ما كُتب في المطهر: «إذا كان العالم الحالي منحرفًا وضالًّا فابحثوا عن السبب في أنفسكم». ولم يبحث في نفسه؟ هل أراد ألّا يكون واحدًا من أولئك المقبِّحين للكون وفشل؟

خطيئة جديدة يقترفها بحق نفسه بحجة السأم والخوف من الآتي، حتى إنَّ وجوده وحيدًا مع امراة موغلة بالرّقة أخافه. لماذا لا يحاول؟ فلا تزال هناك بقية من وقت، وبقيّة من أمل. ليس ما يمنع إن بقيت معه الليلة تؤنسه، ماذا في العمر أجمل من مؤانسة امرأة تأتي مختارة، راضية، ممتنّة

وتطغى برقَّتها على حرب تهتزّ تحت عنفها الأرض؟ ليس ما يمنع إن هو باح لها بأسراره التي صدئت وعاث فيها الزمان وصارت نسيًا منسيًّا.

سوف يسوح بها في وطنه الذي لا يبعد سوى بضع خطوات، يدعوها للدخول إلى نفسه بلا تصريح، وبلا تحقُّق من هويّتها ونواياها. يُجلسها على سريره، يقابلها على المقعد الصغير، ويحكي لها ما تيسَّر من سيرته العصيّة على السَّرد. سوف يردُّ لها الجميل على أنها مرّت في حياته في يوم كهذا؟

لما لا يجرِّب؟ فرصة لاحت متلألئة دون أن يكون في انتظارها. قد تعينه هذه النرجسة العبقة الجالسة أمامه على النأي ولو قليلًا عن وجعه. سطا حضورها عليه وعرّاه؛ يليق بجمالها وحضورها ما هو أكثر. لِمَ لا يكون وجودها فرصة لتخطّي العمر الثالث الذي استعصى عليه هجره على الرغم من محاولاته الكثيرة فظلّ ملازمًا له؟ هل ستدشّن وجدان بحضورها بدايات عمره الرابع؟ ما يخفيه خلف البار ليس سوى أرشيف لما أصابه بعد «بيروت جوزيت»، لم يصبح عمرًا بعد؛ بل رحلة صعبة، ومفترقًا حادًا، ووقوفًا على الدوْر مع أولئك المتجمعين في درك المطهر الأسفل الذي رسمه «دانتي» في كوميدياه الإلهيّة.

تردَّد في حسم قراره؛ هل يشرع لها أبواب عمره؟ شيء ما كان يضعفه ويسوقه للإحجام عن فعلة لا يقدِّر كيف ستكون عاقبتها عليه.

استجمع كل مداركه لخوض معركته المصيريّة، ليلة واحدة لن تكون كافية لكشف عمرٍ كاملٍ، ولا حوْل له للصُّمود أمام هجمة الفجيعة التي

ستهدمه إنْ كشف لها عن كل أوراقه، فليحذر إذن لأنَّ النساء مفاتيح صدور الرجال.

لتجربة المرَّة الأولى في كل شيء طعمٌ حلوٌ، رائحةٌ شذيّة، ودفءٌ ساحرٌ. عناقهما الارتجاليّ تجربةٌ أولى غيَّبَت تجاربه السابقة، لقد كانت حقيقة بين يديه، ليس تخيُّلًا، لربَّما هو مَن كان بين يديها، اشتمَّ عطرها، ورائحة شعرها، وتحسَّس جسدها الطريّ، وأحرقته أنفاسها الدافئة، إنْ حكى لها عن حياته هل سيعاود جمال التجربة الأولى، أم أنه سيقضي باقي العمر نادمًا؟ «تمالك نفسك يا رجل، هي ليلة وتنقضي. احفظ سرّك فأنتَ لا تعرف مَن تكون وجدان. كم مِن قريب لها؟ كم مِن صديق لها؟ كم مِن حبيب لها؟ لتفضح سرّك لهم».

- ما الذي نفعله هنا؟

«لا أفهم» ردَّ وقد باغته سؤالها الثاني، وكأنه يريد أن يربح بعض الوقت يلملم به شظاياه التي بعثرتها، ويحثّ عقله على مجاراة اللحظة.

- «هل سنبقى غرباء؟» عادت تسأل.

- لا أفهمكِ.

عادت وقالت بتصميم:

- احكِ لي عن حياتك.

ما كان يفكر به أنَّ الغربة تتهشَّم بين الناس إن هم عرفوا حقيقة بعضهم بعضًا، وأنَّ تشابه بعض تفاصيل حياتهم قد يخفِّف من غربتهم، يصيرون

أقرب لبعضهم بعضًا وتتكسَّر الحواجز المرسومة بينهم. قبل أن تفلت منه الفكرة التي أثارته قال:

- دعينا قبل ذلك نفتِّش عن التقاطعات التي تجمعنا، دعينا نرَ إن كان بيننا ما يجعل كلًّا منّا يحكي عن حياته دون خوف.
- قد تنفي التقاطعات يا صديقي ولا تثبت. إن أخبرتكَ عن تفاصيل حياتي وأخبرتني أنت عن حياتك هل تجرؤ أن تعترف بأنَّ فيها ما يجمعنا؟ وإن كنتُ صادقة وصادف أن تشابَهَت بعض فصول حياتنا، هل نصير قريبين ولا نعود غرباء؟
- لمَ لا؟
- تشابه تجاربنا لا يعني تشابه مشاعرنا، ولا رؤيتنا. نحتاج لعمر كامل حتى نكشف ذلك.
- «ليلة واحدة تكفي» قال بثقة.
- لن تكفي.
- ومع هذا سأحكي، أشعر للمرّة الأولى أنَّ فمي مليء بالكلمات.

عدَّلت من جلستها:

- قرار جريء، أسمِعني.

هيَّأت نفسها بحركة سينمائيّة، أخيرًا سيتكلّم، ستحاول أن تقرأ كل كلمة يقولها، تعيد تركيبها، تجمع عباراته من ملامح وجهه عندما يتكلم، ومن حركته وتململه وسكوته. لعبة ستنقلها إلى الأماكن التي كان بها،

والعوالم التي عرفها، والأحلام التي أنكرها. ها قد أضحى بساطها السحري وطوْع أمرها، «هوبَّه، حلِّق يا بساط الريح»:

- سوف أسرد لكِ سيرة حياتي منذ الطفولة.
- أحبُّ أن أسمعَك؟
- لن تملّي؟
- سأطلبُ منكَ أن تسكت إنْ حدث.
- نسكب كأسًا؟
- بداية حلوة.. نسكب كأسًا.

مشى صوب البار، ملأ كأسين، وضعهما على الصينيّة، وبحركة لا إراديّة تناول قبضة من الفستق سكَبَها في صحنٍ زوْرَقيّ، وعاد ليضعها على الطاولة:

- «Cheers».

تهيَّأ، أراح ظهره على الكرسي، التقط نفسًا عميقًا، رفع كأسه إلى رأسه، عبّ منها جرعة طويلة، أعادها إلى الطاولة وقد أجهز على نصفها:

- جئتُ إلى الدنيا قبل خمس وأربعين سنة. فوجئتُ في عمر السادسة أو السابعة بأنّي قد كبُرت، وصرتُ بسبب القوانين التي وضعها أبي قريبًا من هجْر الطفولة. لكنْ نجحتُ في الإفلات من هذه القوانين التي تُفرض على الذكور في البيت؛ أن يتحوَّلوا إلى فلاحين يعينونه في الحقل الصغير الذي نعتاش منه مثلما فعل مع شقيقي الأكبر. واتتني فكرة أن أهرب من هذا المصير بمحاولة إقناعه أن يسمح

لي أن أذهب إلى الكُتّاب وأتعلم أنْ أفكَّ الحرف. ساعدتني أمي التي أقنَعَته أنَّ أرضنا صغيرة وأنَّهُ وشقيقي قادران عليها.

نظرات أبي التي كانت تراقب اكتمال عودي واشتداد ساعدي، ومعركته مع نفسه بين أن يخلّيني بما أنا فيه؛ أتعلَّم وأصير قادرًا على تحصيل شيء مختلف عن كلّ سلالته، أو أنْ يسوقني إلى الحقل، دفَعَتْني لأوَّل حرب مع الحياة. قاومتُ، وصبرتُ، وحاولتُ جهدي أن أنجح، كنتُ غير كل الأولاد، متحمِّسًا للتعلُّم، لكن لم أكُن مجتهدًا في الدراسة، ولا جريئًا في الحارة مثل باقي الصبية الذين كانوا مغامرين في كل شيء.

احتملتُ الضرب من المعلِّم ومن أبي لأني لم أكُن أتجاوز أي درس إلّا بعناء، ورضيتُ بنبْذ أولاد القرية لي، وتشهير المتزعمين لعصابات الصبيان بي. لم أرضخ لقوانين الحارة، ولا قبلتُ أن أنخرط بلعب ومغامرات الأولاد. لم تكُن تروق لي أفعالهم، ولا شغفهم بالمشاغبة. عشتُ سنين وأنا أحمل لقبَ «فاشل». هذا كان وصْف أبي لي كلَّما جئتُهُ خائبًا. صمدتُ حتى لا يخدعني العمر، ويسرقني منّي ويجعلني فلّاحًا.

تعلَّمتُ القراءة والكتابة بشقّ الأنفس وقبل فوات الأوان، فقد باع أبي قطعة الأرض التي ما عاد محصولها يسدّ حلوقنا، وقتَلَ مشروع حياته الذي ورثه عن أبيه قبل أنْ يورِّثنا إيّاه. سافر بنا إلى عمّان، أدخلني المدرسة لأنه لم يعُد له حاجة بي؛ لا حقل ولا

عضلات تقدر على العمل، حزتُ بعد سنين شهادة «المترك الابتدائي» التي كانت تؤهِّلني لتسلم وظيفة في الحكومة.

توزَّع ذكور العائلة للعمل، اشتغل أبي مزارعًا في الأغوار، وعمل أخي الكبير في البناء. ثم فاجأنا أبي بموته، لم أقبل العمل مع أخي الكبير، ولا أنْ أصبح مثل أخي الأصغر الذي لم يطل مكوثه في المدرسة وتحوَّل إلى متسكّع، ثم إلى «سرسري»، تعرَّفنا بفضله على كلّ مخافر الشرطة، مَن كان منّا يملك الوقت والنقود كانت تجبره «فاطمة» أمي على تكفيله من تهمة مشاجرة، أو سرقة، أو سُكْر وعربدة.

عملتُ جرسونًا في مقهى على «جسر رغدان». أحمل صينيّة الشاي والقهوة وأمشي بها إلى الزبائن الذين كانوا عُمّال إطارات وحدادة وتجليس سيارات. بقيتُ في هذه المهنة أكثر من سبع سنوات إلى أن ماتت «فاطمة». كان قد أصبح لأخي الكبير بيت وعائلة، واشتهر أخي الصغير كواحد من بلطجيّة البلد المعروفين.

دون مقدمات، وبلا تفكير أو تخطيط، صحوتُ في أحد الأيام وأنا عازمٌ على أمرٍ لا رجعة عنه؛ أنْ أهجر عمّان إلى الأبد. كنتُ قد ادَّخرتُ مبلغًا من المال يكفيني للعيش بلا عمل لأشهر. مضيتُ إلى مكاتب السفريات في «شارع الشابسوغ» وبقيتُ منتظرًا هناك طوال اليوم. أخذتُ أراقب المسافرين إلى القدس وبغداد والشام

وبيروت وأتفحَّص أشكالهم ولباسهم والتعابير المرسومة على وجوههم.

كان صوت الدلّال وهو يصرخ «بغداد، بيروت، القدس» كأنه دعوة للدخول إلى السينما، أو لتناول وجبة طعامٍ بسعرٍ مغرٍ، أو للعب النَّرد على قطعة كرتون لتكسب «التعريفة» «شلنًا»، فإمّا يظفر المقامر بهذا الشلن، وإمّا يخسر تعريفته بثوانٍ.

رأيت في صوت «الدلّال» أنَّ أيّ رحلة إلى المدن التي ينادي عليها، لن تزيد عن نقلة صوتيّة، وأنَّ العابر لشارع «الشابسوغ» يمشي نحو عالمٍ خارجيّ آخر، وأنَّ السيارة مركبة فضائية تنقله بثوانٍ إلى «بغداد»، يشتري سلالًا من التمر، ويرجع في النقلة الثانية. أو يزور بيروت يقضي سهرة ممتعة، ينام بعدها في بيته في عمّان. تساءلتُ: لماذا يتمسَّك هذا الدلّال بدعوته دون ملل، ومن غير أن يفقد الأمل بالتقاط زبون واحد؟

كنتُ ما أزال غريبًا عن فهم الأساليب التي تُسوَّق فيها الأشياء. ما أفهمه أنَّ كل مَن يريد أن يغادر وطنه لا بدَّ أن يكون متهيِّئًا لذلك، يُحضر حقيبة سفر، يودِّع أهله، يحمل جواز سفره ويقصد مكتب السفر. لن يحتاج لـ«دلّال» حتى يقنعه بعمل كل ذلك.

«إلّا إذا جاء مَن يطرده من وطنه»، قاطعته.

هزَّ رأسه موافقًا. كان عازمًا على إكمال ما يريد سرده عن حياته. تهرَّب من الخوض في أمر يعرف أنَّ الحديث به يطول، فإنْ هو كفّ عن الكلام

لن يسهل عليه إكمال قصَّته التي حدَّد بدايتها وتفاصيلها ونهايتها قبل أن يتكلم.

أكمل الكشف عمّا يريد أن يُسمِعه لها:

- تخيلَّتُ أنَّني المقصود بنداء «الدلّال». صار الوقت عصرًا وبُحَّ صوته وهو ينادي على السيارة الأخيرة لبغداد والشام وبيروت. تحرَّكتُ من تحت العامود الذي تخدَّرَت رجلي من الوقفة تحته. مضيتُ صوبه، كفَّ عن النداء عندما رآني أمشي نحوه وكأنه كان يعنيني منذ الصُّبح بصراخه. اقتربتُ منه، سألتُه:
- كم أجرة بغداد؟
- نصف دينار.
- وبيروت؟
- خمسة وثلاثون قرشًا.

ناولتُه القروش الخمسة والثلاثين المطلوبة، انتظرتُ تعليماته. أشار بيده إلى سيارة كان سائقها كاشفًا عن شعر صدره، وعاقدًا منديلًا حول عنقه يمسح فيه العرق الذي ينزُّ من بين خصلات شعره الشائب. وكان ذلك آخر يوم لي في عمري الثاني.

- «ماذا يعني عمركَ الثاني؟» سألتهُ مستغربة.
- هذا موضوع آخر قد أحكيه لكِ إن جاء وقته.
- «يعني هناك عمر أوَّل؟» قالت بدلال.
- أجل.

وفي محاولة للتهرُّب من أسئلتها أكمل بحماسة:

- فجأةً وجدتُ نفسي في بيروت. سحتُ في لبنان أسابيع مثل أيّ زائر يبحث عن إجازة تُعيد له الحيويّة لكي يرجع إلى عمله أكثر نشاطًا. لم أفكِّر بالعودة. فلا أحد في عمّان أشتاق إليه.

عندما أوشَكَت نقودي على النَّفاد قرَّرتُ أن أبحث عن عمل. تنقَّلتُ في أكثر من مهنة؛ عتّال في الميناء، بائع يانصيب، قهوجي، إلى أن صرتُ عامل تنظيفات في حانة صغيرة في «الحمرا». بعدها صرتُ معاونًا لبارتندر، وعندما ترك العمل لم تجد صاحبة الحانة أمامها خيارًا غير أن تسلِّمني مكانه. فتحت لي هذه الوظيفة باب العودة من جديد إلى عمّان، فقد تعرَّفتُ على مالك «الريفيرا» التي لم تكُن موجودة أصلًا.

العجوز الطيبة الست جوزيت، امرأة عاصَرَت الأتراك والفرنسيين، وعاصرتني. لم تكن مساحة الخمّارة التي تحمل اسمها تتعدّى نصف مساحة «الريفيرا»، زبائنها من نزلاء الفنادق القريبة، كانوا مواظبين على الحضور إلى حانتها لرخص الأسعار ولسماع قصصها الفاضحة والمسلِّية والثوريّة أحيانًا. أعتقد أنَّ الثوريّة هذه لم يكن يسمعها أحدٌ غيري. كانت تتملَّكها في بعض الأحيان حالات حزن عميق، فلا تعود تلك العجوز كثيرة الهزل والسخرية وحتى الماجنة، تصير تبكي بلا سبب، تكون تقرأ في صحيفة، أو في كتاب باللغة الفرنسيّة لا أفهم من حروفه شيئًا ثم تجهش بالبكاء.

مع السنين حكت لي عن سبب حزنها، عرفتُ لمَ هي وحيدة؛ فقد فقَدَت زوجها وإخوتها أيام سفر برلك، وفقَدَت ابنها الوحيد في إحدى مظاهرات سنة 58 احتجاجًا على التدخُّل الأميركي في شؤون لبنان لحماية الرئيس كميل شمعون الذي طلب دعمها ضدّ المدّ القومي والشيوعي. لقد بخلت عليّ بالتفاصيل عن هذه الأحداث لأنها لم تكُن تحبُّ الإطالة فيها، إلّا أنَّها أعطتني مدخلًا للقراءة. بدأتُ بتجميع كتب تاريخنا المعاصر، اكتشفتُ حقائق كثيرة ليس عن تاريخنا فحسب، بل عن وجودنا على هذا الكوكب. وجدتُ راحتي في التاريخ، وآمنتُ بعبثيّة الحياة.

- «هل تقرئين؟» قَطَعَ سرد سيرته وسألها.
- كثيرًا، أحبُّ السينما أكثر.

لم يعلِّق، عاد يكمل حديثه:

- لم تحكِ لي جوزيت عن تفاصيل حياتها الخاصّة وتجاربها، إلّا بعد أن أطمأنَّت إلى أنَّني لا يمكن أن أبوح بأسرارها لأحد. عندما كنتُ أسألها كيف تحمل كلّ هذا الحزن ولا يبدو عليها إلّا الفرح؟ كانت تجيبني وهي تشدّني من أذني: «يا ذيب الشقي، الزبون يأتي عندنا ليفرح لا ليحزن. إن دخل من باب الدكّان ولم يرَ ابتسامة تستقبله سوف يدير ظهره لنا وينصرف».

قاطَعَتْهُ وجدان ضاحكة:

- لقد كنتُ محقّة، لم تكن ابتسامتكَ تلك التي كنتَ توزِّعها علينا، بل هي ابتسامة العجوز جوزيت.

بدا على وجهه أنَّهُ لم يرُق له هذا التعليق. أكمل وكأنَّهُ يتعجَّل الخلاص من تعهُّده بأن يحكي لها عن حياته:

- أحبَّتني جوزيت وكأنّي ابنها. قلّة الكلام التي كان يصفني بها الزبائن هي ما جعلها ترتاح لي، لطالما ذكَّرتني بذلك، وكأنَّها كانت تحذِّرني من أن أصبح طويل اللّسان. حبّها ليّ ولصمتي قد يكون لأنّي لم أكُن مثلها، كانت كثيرة الكلام، لا يسكن لسانها في فمها ولا حتى ليأخذ قيلولة. تظلّ طوال النهار جالسة على كرسيها وراء ماكينة النَّقد، تأكل وتشرب وتأخذ قيلولة هناك، تجالس أصدقاءها القريبين. جلَّهم من النساء العجائز، تتكلم وكأنَّ بينها وبين الصَّمت عداوة، فهي لا تسكت ولا حتى لالتقاط أنفاسها. كانت تحكي قصصًا عن الفرنسيّين، وأخرى عن الأتراك. تنتقل من قصة إلى أخرى بلا فواصل، تهمِّش، تعيد تذكير مَن يصغي إليها بما قالته، تربط سيرة مَن تحكي عنه إن كان حيًّا بماضيه، أو ماضي أبيه. تفضح الساسة الذين يتحكَّمون بالطوائف، وتكشف ستر المتديِّنين. كانت تدَّعي أنها تعرف كل أهل بيروت، وتعرف أسرارهم، تسمّي كل واحد منهم باسمه، تُلحقه بسخرية وهي تنطر رأسها عاليًا، وترفع يدها وكأنَّها تكشّ بها ذبابة:

«هيدا النائب كان لوطي».

«هيدا الوزير كان يجيب الزلام لمرته لينامو معها على عينه».

«وهداك اللّي عامل نفسه اذْكرتي كان يشتغل قوّاد».

أحببتُ عملي معها، وأحببتُ قصصها، على الرغم من أني كنتُ أتربَّص بها أن تخطئ، أو أن تغيِّر في مرة من الحوادث التي تسردها حتى أقنع نفسي بأنَّها ملفِّقة كبيرة، لم أقتنصها ولا مرّة واحدة، صرتُ أصدِّق كل ما تقوله، وأُصدم عندما تقع حادثة في البلد تؤكِّد صدقها. لم تكُن جوزيت مثل أمهاتنا اللواتي ينتظرن حُسن ختام أعمارهنّ، بل كانت وكأنَّها تثأر من عمرها الذي يتلاشى.

استوقفت وجدان الخائفة من مقاطعته عباراته الأخيرة؛ فكرت: «كم هي عجيبة النَّفس البشريّة! كيف تقدر على تقمُّص ذوات متناقضة يصعب الكشف عنها، لكنها تصبح فجأة عارية؟».

أكمَلَ على عَجَل:

- لا أريدُ أن أطيل الحكي عن جوزيت التي صرتُ أحبُّها وأرعاها وكأنَّها أمي، وما زلتُ أزورها وأقضي في بيتها شهر رمضان كل سنة بعد أن عجزَت وما عادت قادرة على إدارة المحل الذي باعته بعد أن تركتُها بسنة. سمعتُ بأنَّ الأرجل قد قُطعت عن المكان من يوم أنْ غادَرَته، وأنَّ الرجل الذي اشتراه منها كان يكيل اللَّعنات لها كل صباح وهو يسحب باب الحانة الحديديّ ليفتحه، ويصرخ ليُسمع أصحاب المحلات المجاورة بأنَّ هذه العجوز الشمطاء قد أطعمته خازوقًا أكبر من صاروخٍ نوويّ.

المهم أنَّ صاحب «الريفيرا» أَخَذَني منها، وجاء بي إلى هنا. كان واحدًا من زبائنها المواظبين. يحضر من عمّان مرّة أو مرّتين في الشهر للاطمئنان على أحوال ابنه الذي يدرس في جامعة بيروت. كان ينزل في الفندق ذاته القريب من الحانة، يقضي معظم وقته عندنا. أعجَبَتْهُ طريقة عملي، ولربَّما أعجبه صمتي أيضًا. عرض عليّ فكرة أن يفتح هذا المحلّ، وأن أشاركه بإدارته. منه رأس المال ومنّي المجهود.

مثل أيّ مغترب كنتُ متشوِّقًا للعودة إلى بلدي وتأسيس حياتي من جديد. وهذا ما كان، وها أنا أدَّعي بعد كل هذا الكلام في حضرة سيدة جميلة تنشدّ لحكاياتي الطويلة، أنّي لستُ ثرثارًا، وأريد أن تصدِّقني.

أكمل جملته الأخيرة وهو يضحك. ابتسمت وجدان له، ارتشفت جرعة صغيرة من كأسها وقالت بعجرفة متخفِّية:

- لم أسمع شيئًا، ما قلتَهُ يشبه حياة كلّ الناس.
- «ماذا تقصدين؟» سألها باستغراب.

ردَّت ببرود:

- ما حكيتَهُ لي عن حياتكَ لا يفرق كثيرًا عن حياتي، ولا عن حياة غيري، طفولة صعبة، صبيّ مُضيّع، شباب مُجهد، وحياة قاسية. لا شيء تغيَّر سوى الأمكنة: عمّان، بيروت، والمهنة: «بارتندر»، معلم، جزّار، قابلة.. تتبدَّل الوجوه: أهل، أصدقاء، أحبّة، صاحبة

حانة عجوز، لكنَّها تظلّ الحكاية نفسها. ماذا عنكَ؟ عن حياتكَ أنتَ؟

- هذه هي حقيقة حياتي بلا مشاعر، إلّا إذا رغبتِ بأن أسردَ لكِ قصة تشبه الأفلام الهنديّة، أبدأها بأغنية، وأنهيها بمأساة؟
- يالله... هل تتسلّى بي؟
- «لا... كلّ ما قلتُه لكِ كان صحيحًا» ردّ عليها بانفعال واضح.
- لكن هل هذه حياتكَ؟
- ما أعرفه أنَّ حياتي تتبدَّل دائمًا، لا أعرف إن كان ما انقضى منها حقيقة، أم خيال. قد أكون خَلَقتُ هذه القصة لأسلّيكِ. وقد أكون عشتُها. لا فرق.
- أواه، لا... هناك فرق كبير.
- أنا لا أرى هذا الفرق.
- «أنتَ تعرف نفسك، وتعرف إنْ كنتَ تختلق حياةً لم تكُن، أو أنَّكَ تخفي عنيّ الحقيقة. هيّا تكلّم» قالت وهي تدفع يدها في الهواء، وكأنَّها تحثُّ طفلًا على المشي للمرّة الأولى.
- ماذا تعنين بأنّي أختلق حياتي؟

تبدَّلت ملامحه من جديد، صار وكأنَّهُ متحفزٌ لشتمها أو لفعل ما هو أعظم. أحسَّت بما يفكر بعمله، ها هو يبعث لها رسالة يخبرها بها بأنه قد ملَّ من وجودها، وأنه اكتفى بالحديث عن أمر لا طائل منه. تلعثَمَت، لم تعُد تجد مخرجًا من هذا الحوارِ السقيم الذي ابتدأته، كانت تراقب شيئًا

يشبه الغضب وهو يعبُر من بين شفتيه المرتجفتين. أعاد صمته وشروده المفاجئ التنبُّه لها، خفتت حماستها للكلام، صار ضميرها يوبِّخها على اندفاعتها القويّة، أخذت تبحث عن مفرّ. «لمَ أنا محاصَرَة هنا؟».

في اللَّحظة التي كانت تفتِّش فيها عن مخرج من المأزق البائخ الثقيل الذي وقعت فيه برغبتها، كان ذيب يفكِّر لو أنَّ الزمان غير الزمان، ولو أنَّ ما يجري هذه الليلة شيء آخر غير الحرب، لطَلَبَ منها بلا أدب أنْ تغادر حانته، أو لتَرَكَها وانصَرَف من مطرحه دون أن ينظر خلفه. فكّر أنَّ تحوُّل مشاعره نحوها، وإحساسه بأنَّ حريَّته قد استُلبت من قِبَل مخلوق غريب قَصَدَ أنْ يسرقه من وحدته التي يعشقها ويحتفي بها كلّما وسعت المسافة بينه وبين الآخرين؛ قد أشعراهُ بأنَّ وحدته الرائقة أخذت بالتَّلاشي.

«آسفة»، قالت بانكسار، وبصوتٍ بالكاد يُسمع.

«اطفي الضو». بُعث الصوت فجأة.

«اطفي الضو، أنت يا (ريفيرا) اطفي الضو».

لم يتحرَّك من موضعه. نَظَرَت تبحث عن خطوته التالية، ودون أن تسأله عمّا يجب عمله، قال بنبرة غاضبة:

- لن أطفئ الضوء.

لم تعلِّق على قراره. بدأ الصوت بالابتعاد، ارتقت عيونهما بعيدًا صوب الباب الذي ظلَّ ثابتًا بلا حركة. لم يُقتحم المكان، ولم يدلف رجالٌ مسلّحون لينفِّذوا الأمر بالقوّة. لا شيء سوى السكون.

«هل هُزم الصوت أخيرًا؟»، فكَّر كلٌّ منهما في سرِّه.

وكان الليل قد انتصف. وما زال صدى أصوات انفجارات بعيدة يأتي من الغرب.

***

ذكريات يابسة..

«تريد منّي أن أحكي لها ما عشتُه حقيقةً. هذا هدفها المُعلن منذ أنْ ابتدأت الكلام، ما الذي يدفعها لأمر مثل هذا؟ هل تريد أن تأمن لي؟ أم أنها ترغب في خداعي؟ مَن ذاك الذي يجرؤ على البوح بأمور لم تجتز حلقَهُ مِن لحظة أن عاشها بكل ما فيها من جفاف؟ التفاصيل الصغيرة العظيمة التي نجحتُ في خنقها، وأخفيتُ علاماتها، وأوشكتُ أن أجعلها شيئًا من النسيان؛ لن أسمح لسيدة طارئة أن تصيِّرها كلمات. تريدني أن أُخرج من فمي سيرتي اللامرئيّة، وأن أهدر دمي أمام مذبحها. تحلم بأن تجعلني أضعف وأوهم نفسي بأني آمن معها لكي أبوح لها بالتفاصيل الصغيرة المؤسِّسة لفواجعي، أن أفتح لها صدري وأعطيها حق العبث بأصابع يديها الرشيقة في خزائن نفسِي، تريد بمكر النساء أن أعترف أمامها لتُشبع فضولها بالمعرفة، ثم تنساها».

أقنع ذيب نفسه بأنه ما يزال متماسكًا، لم تهزّه أو تهزمه الحرب، ولا مشاعره المرعبة خوفًا من نتائجها الغامضة، ولا قدرت هذه الجميلة على أن تغلبه. صدَّق أنه ما يزال صامدًا مع الخمرة الكثيرة التي شربها، في مواجهة سحر الأنثى الوحيدة على الأرض. فكر أنها تطمع في أن يفتح

كتاب عمره أمامها على مصراعيه وأن يقدِّم لها سيرته هديّة، لكنه سيتحايل عليها مثلما يفعل النعاس الذي يتسلَّل إلى عينيها في تثاؤباتها المتناوبة.

صارا يحكيان عن الليل، وعن الشموع، وعن لقاءات الناس مصادفة. وفي رأس كل واحد منهما قصته التي لن يحكيها لنديمه، لو أنَّ ذيب بادر ولم يمسك زمام لسانه لقال:

«كلّ ما حكيته لك كان صحيحًا، لكنَّهُ ليس كلّ ما يُقال. ما لم أقُله أنَّ حياتي لا تشبه حياة الناس، عندما تسمعين الحقيقة التي لن أبوح بها لكِ ستُصدمين، وستنفخين أنفاسًا حارقةً من فمكِ تلسعني، قبل أن ترفعي يديكِ وتعترفي مستسلمة أنكِ لم تسمعي عن حياة تشبه حياتي. ما لم أقُله لكِ، ولن أقوله بالتأكيد، أنّي قضيتُ سنوات عمري الأولى صامتًا، قليل الكلام، أو لنقل أخرسَ، كنتُ إنسانًا غير مكتمل النموّ. أنقذني جهل أهلي من أن أصنَّف ضمن المتخلّفين عقليًّا، لم يملكوا الوقت، ولا الإدراك، ولا المال لمراقبة سلوكي، بل على العكس؛ كانوا يحسبون أنّي ولد مؤدَّب، رضيّ والديه وقليل الكلام. لم أكُن أجادل في أيّ أمر حتى وإنْ كان يعنيني، لا أمتنع عن تنفيذ الأوامر التي أتلقّاها من كل مَن هم أكبر منّي. لا أتعارك في البيت ولا في الحارة مع أحد. سذاجة أهلي حمتني من السقوط في بئر الجنون، ولو أنَّ أولاد القرية لم يصِفوني بالجُبْن لأنّي لم أكُن أشاركهم شؤون حياتهم في اللعب، والصيد، والسرقة، وممارسة

العادة السريّة أمام أعين الآخرين، لو أنَّهُم لم يُنعموا عليّ بهذه الصفة؛ الجُبن، لجعلوني «أخْوَت» القرية، ولصرتُ أمشي بالشوارع على إيقاع هتافات الأولاد، وطرقعة أواني التَّنَك، ولصرتُ «الأخْوَت» بامتياز. نجوتُ لأقع في كمين وحدتي، حتى اعتدتُها وأحببتُها. لا تأملي أن تسمعي شيئًا من كل هذا».

وضُح على وجهها سباتٌ متخفٍّ. كانت تقاوم اقتناص قيلولة تريح جسدها. صارت ترى كواكبَ تتراقص في السماء كبلارينات ساحرات، ترتقي بمشاعرها حدّ القداسة. أسندت بحركة لا شعوريّة رأسها على مسند الكرسي، تكشَّفت له عنقها البيضاء الطويلة. وتلك الشامة الصغيرة الأرجوانيّة المطبوعة عليها.

وقف بحذر، أخرس الراديو، عاد وأسند ظهره لكرسيه بهدوء، أخفى صوت تنفّسه، صار يتأمَّلها، هدوء عجائبي حطَّ على كونه. غدت وجدان كأنها امرأة في لوحة، بريئة، جميلة، ولا يقتلها الفضول.

لم يبقَ سوى صوت أنفاسها الناعمة. لحظة تجلٍّ أشعرته بأنه موشكٌ على الارتقاء للقاء الحبيب. دوّار خفيف، وانتشاء ناعم. يداعبه العرق النديّ الذي كان يتجمَّع حول عينيه، يهدهده لينام مثلها. ها قد عادت له نعمة الصَّمت. لن يخدش صوت نديمته الجميلة وأسئلتها الكثيرة رقّة اللحظة.

للذاكرة معابرها غير المرئيّة، عندما ينفتح وعي البشر، تُشرَّع أبوابٌ على العمر لم تُطرق من قبل. لا يتذكر الطفل ماذا أكل وهو صغير، ولا كيف كان شكل مَن حوله، لا يفهم حزن الناس ولا فرحهم، ولا يفهم لماذا ضحك أهله أو بكوا. الطفولة رحلة بلا زاد من الذاكرة. كل ما فيها يبقى ماكثًا في نقطة في العقل في سبات عميق إلى أن يأتي ما يقضّ مضجعها وينبِّهها من سباتها.

في وحدته وبحضورها بدأت تنهمر على رأسه الذكريات، وكأنها أشلاء ممزَّقة، تحطُّ به في أدنى بقعة في الجحيم. فكَّر بأنه لا يفهم شيئًا من الأفكار التي تتعارك في رأسه؛ فكيف يريد أن تفهمها هي إن خرج على صمته الأزليّ وتكلَّم؟ مَن يحكي عن طفولته بثقة المتذكِّر ينسى بأنَّ كل ما يحسب أنه يتذكَّره هو ما قيل له، وليس ما عاشه. وكلما اتَّسعت مساحة عمره تناقصت الذكريات، أشياء قليلة ترفض أن تُنسى وتظل جاثمة على الذاكرة لا تتزعزع، أبشعها وجوه الصبية المراهقين القاسية وهم يتداولونه بفعلٍ مؤلمٍ؛ بمتعة، وبعدها الخوف الذي في عيني أمِّه التي يئست من تخفيض الحرارة التي جعلت جبينه يغلي.

القوية «فاطمة»، لم تنفِّس قهرها بالعويل، بل عزمت على أن تلاحق كلّ جرثومة تحاول أن تسطو على دماغ ابنها، أياما ولياليَ طويلة وهي تحارب مع طبيب المستوصف هذا العدو الغاشم. دون أن تعرف أصل هذه الجرثومة ومن أين جاءت لمخ صغيرها وسكنته.

قالوا وقتها إنَّ شفاء الصغير ذيب كان معجزة. وقال الأطباء في عمّان بعدها إنَّ تشخيص طبيب المستوصف لمرضه لم يكن صحيحًا، لأنه عندما تعافى وخرج منتصرًا على المرض، لم يترك فيه شيئًا من آثاره مثلما يفعل عادة كلّما سطا على أدمغة الناس، وعندما أُكره على التقهقر من دماغ الصبيّ لم يخلّف وراءه نوبات صرع أو فقدانًا للسمع، ولم يحوِّله لأبله أو محدود الذكاء (هذا إن كان ذكيًّا قبل أن تفترسه براثن السحايا المُفتَرَضَة من قِبل طبيب المستوصف، أو مؤهَّلًا لأن يكون ذكيًّا). العلامة التي بقيت ملازمة لـذيب من نوبة المرض التي عانى منها أسابيع ولم تفارقه حتى صبيحة هذا اليوم هي الصمت. إلى أن جاءت اللحظة التي جعلته فيها زبونته الحسناء ذات العيون الخضراء والفم الشهي، يتكلم ويحكي لها عن سيرته في بيروت، وأن يتذكَّر السرّ الموؤود في صدره، فيرتجف، ويصاب عقله بنوبة فزع أقوى من فزعه من الطائرات، والبلاغات العسكرية المتواليَة المكشوف كذبها، والأوامر التي تأتيه من الشارع لكي يطفئ الضوء. تبدَّلت سحنته. امتقع لونه، جفَّ ريقه. تخلَّت عنه حماسته، ومضى مع العتمة. ولم تعُد المرأة المستسلمة للنوم ماثلة أمامه لترى على أيّ حال صار هو الآن.

ها هم يأتون من جديد بأجسادهم الصلبة، وأصواتهم الخشنة، ونزواتهم البشعة. يسوقونه نحو الحرش البعيد. ينزعون سرواله بعنف. يلقونه على الأرض. شلل يقيِّد جسده الطفل، يتداولونه ثلاثتهم، مرة،

وثانية وهو مسجّى بينهم يموت ويعود لتحييه شدّة الألم ثم تميته مرّة بعد مرّة. «*يا للّعنة! أي مرض أبشع من هذا الذي في هؤلاء المعاتيه المرضى؟ وأي وجع أعتى من فضّ طفولة ولد ضعيف بائس؟ لماذا أضحوا متوحّشين؟ كيف انتُزعت منهم براءتهم وتحولوا لمخلوقات تشبه الواويات الجائعات؟ لم يتكلموا معه ولا حتى في ما بينهم، هالة سوداء ضربتهم وكأنها عصا سحرية مسختهم وجعلتهم ينهشون جسد الطفل المستسلم دون رحمة*».

العبارة المكتوبة بفرشاة دهان على سور المدرسة، الموقَّعة باسم «سقراط»، هي ما فتحت عقله على الصمت. مع نوبات الحمّى التي كانت تعيده للتجربة في اليوم عشرات المرّات، وتخيُّله لقيام أولئك البشعين باغتصابه واعتلائه حتى وهو نائم في فراشه، ظلت تحوم فوق رأسه العبارة السقراطية التي رسمت مسار حياته: «خلق الله لنا أذنين ولسانًا واحدًا.. لنسمع أكثر ممّا نقول». لذلك لم يخبر أحدًا بما جرى له، وما فعله فيه أولئك المسوخ. لم يكونوا هم الأولاد الذين يعرفهم في القرية، بل كانوا مسوخًا.

ملعونة هذه الفاتنة النائمة التي جعلته ينبش القبر الذي يرقد فيه عمره الأوَّل. كان قد صار عمرًا من الرماد منذ زمن بعيد إلى أن جاءته اليوم لتعيد للموءود حياته دون أن تقصد، لكنَّها فعلت. أيّ شيطان يختبئ في جسد امرأة فاتنة دون أن تحسّ به؟ الذكرى التي أطاحت بعمره قبل أن

يحجل خطواته الأولى في الحياة هي التي غيَّبَت الأعياد التي أعلنها حضورها اليوم؛ لقد أوقفت الكواكب التي جلبتها معها عن الرَّقص، واشتدَّت العتمة من فوقه، وحلَّت به الهزيمة مبكرًا.

لم تكن عبارة «سقراط» صعبة، أو عصيّة على الفهم حتى لفلّاح صغير مثله، فكَّر وهو يعاني من نوبات الحمّى بأنَّ فيها خَلاصه دون أن يدرك من أين أو كيف تلبَّسته هذه الفكرة؛ الصَّمت، وهو لا يعدو سوى صبيٍّ صغيرٍ جاهل.

انقطع عن الكلام، وأصاخ السمع ملء أذنيه لأيّ صوت قد ينبعث من أي ناحية، قويت حاسة سمعه، فصار يسمع طنين النحل، وحفيف الأفاعي البعيدة. ينتبه من نومه على زقزقة فرخ عصفور يتململ في عشِّه، أو أصوات كنس رماد الطوابين. تلك كانت آخر أيام طفولته. هنا في عمّان افتقد كلّ تلك الأصوات من لحظة أنْ حطَّ رحال أهله فيها، ومع هدوء المدينة المقيت، صارت تُبعث من داخله أصواتٌ مرعبة.

انقضت أكثر من ساعة قبل أن تتململ الجميلة النائمة على كرسيها وتعيده إلى «الريفيرا» التي صار قصيًّا عنها. كان الشوق يشدّه ليدلف إلى وكره الذي يحميه منذ أن وطئت قدمه هذا المكان، فكَّر متى ستغادره ضيفته الثقيلة حتى يخلو لنفسه ولكتبه ورسائله المزويّة في حجرته.

كفَّ عن النبش في ماضيه، حملق بعينيه يراقب حركاتها الساكنة الناعمة. شقَّت عينيها الواسعتين بتثاقل. انتبهت أنَّها ليست في سريرها.

فاجأها ذيب الجالس بعيدًا عنها واضعًا رجلًا على الأخرى يمجُّ من سيجارته بهدوء.

- «ماذا فعلت؟» قالت بما يشبه الاعتذار.
- كنتِ بحاجة لهذه القيلولة.
- نمتُ طويلًا؟
- ليس بما يكفي.

تحرَّكت من موضعها، جذبت ذراعيها، وقفت متثاقلة، ومشت صوب الحمّام. سمع صوت الماء ينسكب في المغسلة، وأصوات حشرجات مكتومة. فكَّر أن يفتح الراديو، عاد وعدل عن الفكرة. وقف ومشى إلى الخارج، أعاد إغلاق الباب بأنْ دفعهُ بقوَّة لكي يُشعرها بأنه قد غادر المكان، وبأنَّ بمقدورها أن تتحرَّر منه، وأن تخلو إلى نفسها.

وقف على ناصية الشارع. الظلام دامس، بدت البنايات المجاورة والسفارة البريطانية مهجورة. لم يلتقط على مدى نظره بقعة ضوء صغيرة واحدة. سمع صوت كعب حذائها يقترب منه بحذر. أدار عنقه. لاح وجهها مضيئًا مرتاحًا. تحرَّك في وقفته. مدَّ يده التقط كفّها. أوقفها بقربه:

- دعينا نستنشق بعض الهواء.

وقفا متقاربين يرقبان العتمة بصمت، على ظهريهما كان يسبح الضوء المتمرِّد الوحيد في عمّان ويغطيهما بالنور؛ ضوء «الريفيرا».

الفصل الرابع

«نورمان بيتس»..

أعاد استجماع أنفاسه. قرَّر أنَّهُ لم يعُد مشتاقًا لوحدته في ليلة مثل هذه. انتظر وجدان أنْ تحكي عن أيّ شيء لكنها لم تعطِه سوى صمتها. لم يجد شيئًا جديدًا يقوله؛ لقد أفرغ ما في جعبته، ماذا عنها؟ لمَ هي متكتِّمة وصامتة؟ كيف استنطقتهُ وجعلتهُ يتكلّم ويكشف حياته أو شيئًا منها دون أن تقول شيئًا عن حياتها هي؟ دهاء النساء ليس شيئًا يصنعنه، ويخطِّطن له، ويركِّبن حجارته بخبث؛ دهاؤهنّ ليس سوى صنيعة ضعف الرجال أمامهنّ.

انتبه بأنَّ الليلة قد بدأت بالإفلات منه، رحل نصفها وزاد السكون على الأرض، اختفت الأصوات حتى تلك التي كان يبعثها الهواء الساكن. استجمَع قوّته. تأمَّل في الوجه الحلو الذي يقابله. قال همسًا: «خلف ذلك الجدار يقبع عالمي».

رفَعَت رأسها الثقيل ببطء تنظر إليه. وقف، مشى خطوات قصيرة، دَفَعَ بابًا صغيرًا مخفيًّا خلف البار، صار يتحسَّس الجهة الخلفية الفارغة من الجدار الذي تنتصب عليه زجاجات الشراب. قال: «هنا تقبع البقعة الوحيدة على الأرض التي تحتويني».

لـم تنطـق بحـرف ولـم تـأتِ بحركـة تـوحي بأنَّهـا قـد تشـوَّقت لهـذا الاكتشـاف. تملّـى بهـا ليتحقَّـق ممّـا تفكِّـر فيـه، لـم يجـد علامـة تـوحي باستغرابها، أو تفاجئها، وعندما لم تنبس أو تعلِّق، أطلق للسانه العنان:

- خلف هـذا الجـدار تعرَّفـت على حقيقـة حيـاتي في عمّـان، لـيس في الفسـحة الواسـعة «الريفيـرا»، بـل في هـذا الجـزء الصـغير المختبـئ خلفها. بعد شهور من العناء والندم على أني تركتُ بيروت، من لحظة أنْ صرتُ أتآلف مع هذا المكان، اكتشفتُ بأنّي لم أعُد قادرًا على العيش بعيدًا عن هنا، بعد أشهر من الضياع والتشتُّت، كنتُ أحاول فيها أن أنسجم مع عمّان دون جدوى، لكني كنت أحنُّ لتلك البقعة، أقضي وقتي في العمل وأنا مشتاق للراحة فيها، إنْ تعبتُ، أو استفزَّني زبون، أظلُّ أمنّي نفسي باللحظة التي سألقي بتعبي في أحضانها.

صمت لبرهة، تأمَّل في حيادها العجيب، فهي لا تزال هادئة وكأنها تحلم. أكمل وهو مصمِّم على أن يكمل ما اعتزم على عمله:

- يحقُّ لكِ أن تفكري بأنَّ هذا ضرب من الجنون. كيف يكون عالَمٌ صغيرٌ ضئيل عالمًا لإنسان غير محكوم بالسجن، أو محاصر؟ في المحل ألتقي الكثيرين؛ رجالًا ونساءً، أغنياء وفقراء، شبابًا وكهولًا، أحبُّ حضورهم، أرتاح للأوقات التي تجمعني بهم، لكنَّني عندما أدخل إلى هناك، ألتقي براحتي.

سكت مرة ثانية عن الكلام، سأل نفسه؛ «مَن يكون هذا الرجل الذي يكلِّم نفسه؟ ليس هو؛ بل واحد آخر يشتاق لوحدته وعالمه الذي يقبع وراء الجدار المتناقض الوجود بوجهيه؛ جافّ متوحد بائس في داخله، ومتألق بالضوء والزجاجات الملونات في خارجه». كاد مع طول صمتها يصرِّح لزائرته بما صار يحس به من حيادها العنيد، ويخبرها أنه لم يعُد فرحًا بها، ولا بمشاركتها له يومه الذي كان مليئًا بالأحداث الكبيرة وجاءت هي لتطغى عليها، وتحلّ مكانها على ضآلتها. «هل حقًّا ملّت من وجودها معي؟»، تساءل في سرِّه. هل يصرِّح لها بما يحسُّه في هذه اللحظة؟ يطلق من حنجرته عبارات فظّة تدفعها بعنف لمغادرة مكانه، دون أن يشغل باله بها، أو يفكِّر إلى أين تمضي؟

أيّ رجل يمكن أن يُقدِم على فعلة منفّرة مثل هذه؟ هل ما يدور في خلده حقيقي؟ أم أنَّ شيئًا ما انشطر في داخله؟ أهي الحرب؟ الآن فهم معنى ما أحسَّ به عندما ألقت بنفسها بين يديه، لم يكُن ذيب هو الذي التقطها لأنه حينها لم يشعر بوجودها، ولم يشتمّ عطرها، ولم يفجِّره ملمسها؛ البارتندر هو الذي حاز على كل ذاك الجمال. تركها تضمّه، وتستكين إلى صدره، وتركها تنسحب، لم يأخذه كل ذلك ولو قليلًا إلى خارج عالمه، ولم يحاول بروح البارتندر أن يُشعرها بأنه قد فهم معنى فعلتها، ومعنى خوفها الذي أودى بها إلى هذا الحدّ المُفرط، تركها تلتجئ إليه وتلتصق به لتوهم نفسها بأنَّها آمنة، وبأنَّها ليست وحيدة. ولتُفهمه بأنَّها خائفة حدّ الرُّعب، على الرغم من أنه يعرف ذلك جيدًا.

لقد ظل عاجزًا عن مفارقة وحدته بكل حضور وجدان الكونيّ.

انفَرَشَت العتمة على عمّان، طغى السكون على الطرقات القريبة والبعيدة، ولم تعُد تُسمع أصوات الانفجارات، وزامور الخطر، ولا حتى صوتيهما، لقد نفد ما في حلقيهما من كلمات، لم يعُد عندها ما تسأله عنه، فسكتت، وعاد هو لذات طفولته الصامتة، وسكت.

تعلَّم طوال عمله في هذه المهنة ألّا يخسر الزبون ما استطاع لذلك سبيلًا، فكلّما طال حضور الزبون زادت مكاسبه. لكن، ليس هذه الزبونة التي صار يخيفه حضورها. انهمك بلا إرادة في البحث عمّا يفعله، أدار مفتاح الراديو وهو يأمل أن ينبعث منه ما يكسر الجمود الذي صار ينفرش بينهما. قد يسمع خبرًا مفرحًا، أو أغنية تُبعد عنه ولو قليلًا القلق والخوف، أو تحدث مُعجزة سماويّة تعلن أنَّ الحرب قد قضت، والعدو قد استسلم.

لا جديد، غير أنَّ أصوات المذيعين لم تعُد تجشّ، قلَّ صخب الأغنيات التي ما انقطعت، بدت منكسرة، هزيلة، لا تحمل نبرة غاضبة، لم يقطعها بيان عاجل، ولا نَبَزَ من بين وصلاتها بلاغٌ عسكريٌّ جديد.

فَقَدَ الأمل في التقاط فكرة أو موضوع يدلف منه إلى حوار مريح. لقد فهم، وأحسَّ، وخاف، وحزن من سكون الراديو. لن يريحها أو يخفِّف من سأمها إن أسرّ لها بما يحسُّه؛ «لقد هُزمنا».

بُحَّ صوت «أحمد سعيد» القادم من إذاعة صوت العرب من «القاهرة»، وتغيَّر صوت مذيع عمّان ليحل مكانه صوت لشاب صغير ناعم، ليس فيه سوى لفظ لغوي صحيح.

لم يبقَ له غير أن يبحث عمّا يبقيها معه، فهي إن ملَّته، أو فهمت بماذا يفكر لن تتوانى عن تركه وحيدًا وتغادر. تخيّل نفسه وحيدًا ينازع قلقه البشع. كل شيء صار رتيبًا وغارقًا في الملل: الطاولات والكراسي، والبار، و«لوريل» و«هاردي»، وحتى العجوز الأدرد وكأسه العملاقة. كل هذه السَّعة ضاقت من السأم الذي حلَّ مكانها، وأضحى الوحيد المتربِّع فيها. لم يبقَ أمامه غير أن يخترق حاجز القلق، وأن يأخذها إلى أفقه المفقود، أحبَّت ذلك أم لم تحبّ، لكن من أين ستأتيه الجرأة على كشف أمر لا يعرفه أحد سواه؟ هل تستحقّ امرأة مثلها أن يكشف لها عن عالمه الحقيقي؟ لِمَ يشعر بأنه يُدفع دفعًا نحو مغامرة كبيرة؟ هو لم يعرفها بعد، ولم يستطع أن يحسم إن كان يليق بامرأة أن تدلف لحياته من بوّابتها الواسعة؟

«ما الذي يجذبكَ نحوها يا رجل، هي أم أنت؟».

لم يشكّ ولا لمرة واحدة في أنَّ ما أراده لحياته من العزلة قد يكون شيئًا واهيًا وضعيفًا لحدّ أن يُكشف بسهولة لامرأة عابرة. هل كان يوهم نفسه أنه قوي بعزلته، حتى جاءت هذه لتنبِّهه من غفوته التي طالت؟ لقد أيقظت هذه المتناقضة بالانكشاف والغموض، والجمال والقبح، والطيبة والقسوة، ما كان يخبئه في قمقمه. لماذا يحدث كل هذا معه الآن؟ أهي الحرب المفاجئة أم وجدان المفاجئة؟

سيحاول أن يشوِّقها لأن ترى عالمه الخاص، كونه اللامتناهي، سوف يحرِّك فيها فضولها الذي ذهب في سبات ولم يصحُ. أسرع نحو جهاز

التسجيل، دون عناء وضع البكرة عند نقطة ما. قبل أن يضغط بأصبعه مفتاح التشغيل سألها: «أتسمعين أغنيات إنجليزية؟»، هزَّت رأسها بالإيجاب.

«هل سمعتِ بفرقة الحيوانات The Animals؟» سألها، ودون أن ينتظر ردًّا أكمل وهو يضحك: «أحبُّ أغنيتهم هذه، أعتقد أنها غُنِّيت لي».

انطلق الصوت من آلة التسجيل. شنّفت أذنيها وابتدأت بالتحقُّق من كلمات الأغنية دون أن تكون معنيّة بمسألة أن تعرفها؛ بل أن تكشف في صاحبها ما لا يعرفه هو عن نفسه، إن كان لهذه الأغنية معنى آخر غير النغم فقد تحقق هدفها:

Baby, do you understand me now
Sometimes I feel a little mad
But don't you know that no one alive
Can always be an angel
When things go wrong, I seem to be bad
But I'm just a soul whose intentions are good
Oh Lord, please don't let me be misunderstood

تذكَّرت الأغنية وأنَّها تحبُّ سماعها. لم تكُن تلتقط منها سوى لحن وصوت جميل، لكنها الآن وقفت أمام معانيها:

«حبيبتي، هل تفهمينني الآن؟
أشعر أحيانًا بالجنون
أنتِ لا تعرفين بأنْ لا أحد على قيد الحياة

يمكن دائمًا أن يكون ملاكًا عندما تسوء الأمور.

أنا مجرّد روح نواياها جيدة

يا رب، لا أريد أن يُساء فهمي».

«أووف. ما هذا المدخل الصعب. لِمَ لَمْ أسمعها على هذا الشكل من قبل؟» سألت نفسها بصمت. أصاخت السَّمع. أخذت تلتقط كل كلمة وعبارة، تنزع عنها الصوت والموسيقى وتنظر في جوّاها.

هنا تكمن مواجع رفيق وحدتها؛ هو مثلها مشغول في البحث عن ذاته، فكرت أنه لم يُسمعها الأغنية عبثًا بل أراد أن يبعث لها برسالة لكي تعرفه ولكي يشدّها إلى منطقة متوارية فيه تختبئ وراء شخصيات: البارتندر، البائع، والتاجر الآثم.

واصلت الاستماع دون أن تعلِّق بكلمة. لم يكن ذيب ينتظر أن تُبهَر به. أو أن يستعرض جوّاته أمامها؛ كل ما كان يسعى إليه أن يجد مدخلًا يدلف منه إليها. لم يعُد هناك ما يستحق الاختباء. إنْ صدق حدسه وحَدَثَ أنْ تعرَّت الأمّة كلّها الليلة، لن يبقى ما يستحقّ أن يظلّ مستورًا في كل زوايا الكون؛ حتى أصغرها.

ظلّت معلّقة أذنيها تتبع ما تقوله أغنية (الحيوانات)

«حبيبتي، أحيانًا أشعر بالهمّ الشديد

مع الفرح الذي يصعب إخفاؤه

يبدو أنَّ كل ما عليّ فعله هو القلق

لأرى جانبي الآخر

أنا مجرَّد روح نواياها طيبة.
أرجوك يا رب، لا أريد أن يساء فهمي».

- تعالي.

بحركة مفاجئة، وبتعجُّل، أمسكها من يدها، سحبها وراءه إلى خلف الجدار الممتلئ بالزجاجات. لم يكُن في دعوته وقراره ما يُريب، لو أنَّ الرجل الذي أقدم على هذا الفعل غير ذيب الذي تحاول اكتشافه، لاستَرابَت من حركته، لكنَّها رضخت بوداعة، وانساقت خلفه.

«هل قالت لها أغنية الحيوانات شيئًا؟»، ماذا لو أنَّ واحدًا من الأطباء، أو من رجال حارتها، أو غريبًا التقته مصادفة، هو مَن دعاها لمهجعه بهذه الجرأة، هل كانت ترضخ مثلما تفعل الآن هذه المرأة العصيّة على التدجين؟

ما الذي جعلها تفكِّر بأنه مختلف؟ لمَ لا يكون الأسوأ؟ هل كان يبدو على المريض النفسي «نورمان بيتس» صاحب النُزل الصغير الهادئ أنه سفاح؟ لقد صوَّر هيتشكوك «بيتس» في فيلم «المريض النفسي» وكأنه مخلوق طبيعيّ. حتى إنه شاب جذاب. لا تعرف كيف جاء لبالها هذا الفيلم الذي شاهدته في سينما زهران مع عيسى وقريبه نافذ منذ أكثر من سنتين. أقنعهما عيسى بأنه فيلم مشوّق، وليس مرعبًا مثل أفلام «ألفرد هيتشكوك» الأخرى.

قبلت دعوة نافذ لهما للعشاء ولمشاهدة الفيلم. عيسى هو الذي اقترح عليهما فكرة مشاهدة فيلم «هيتشكوك» (المريض النفسي) PSYCHO. لم

يحاول إخفاء رغبته في التلذُّذ بتخويفهما. حاولا إقناعه بمشاهدة فيلم آخر إذ إنهما هي ونافذ لا يحتملان الإثارة المرعبة. انصاعَت هي لرغبة حبيبها، ورضخ نافذ الذي تورَّط بهذه الدعوة.

لن تنسى الراحة التي كانت تتملّكها عندما كانت تلتصق بعيسى، وتخفي وجهها على صدره لتتجنَّب المشاهد المرعبة التي كان أَصعبها اللّقطة التي يقوم فيها «نورمان» بفتح الستارة على المرأة التي تغتسل، لينهال عليها طعنًا بسكين ضخمة. لم تحتمل بشاعة المنظر، ولا الموسيقى المرعبة التي كانت تتصاعد وكأنها أنصال تنزلق على الأوتار، وليست أقواسًا من الشّعر.

من غير الممكن، أو هو ضرب من المستحيل أن يوجد أيّ شبه بين ذيب الوديع، و«نورمان بيتس» الذي كان يتكشَّف للمرأة التي جاءت لتبيت ليلة واحدة في (نُزله) الذي صادفته في طريق سفرها. تصرُّفات «بيتس» ونظراته وشكل الأشياء التي أحاط بها نفسه كانت مريبة وتُوحي بالإجرام، ذيب ليس كذلك بالتأكيد.

«نورمان بيتس» كان يقتل نزلاء فندقه الصغير دون هدف وبلا وعي، كان مختفيًا وراء علاقة ملتبسة وغامضة مع أمه، ويوهم الآخرين بأن أمه موجودة وحيّة، وأنها هي مَن يملي عليه الأوامر، وتحظر عليه مرافقة زبونات النُّزل اللواتي تصفهنَّ بأنهنَّ ساقطات.

«هل يخفي ذيب جثة أمه المتعفنة وراء هذا الساتر؟».

عندما كان يحكي لها ذيب عن حياته، كان وكأنه يعيد إليها الفكرة التي في الفيلم، «بأنَّ كل منّا يعيش في ورطة خلقها لنفسه، ولا يستطيع أن يخرج منها».

لم تردعها مخاوفها عن تسليم أمرها والانسياق له دون أن تطرد من رأسها فكرة أنه من غير المستبعد أن يسكن في ذيب شخص ثالث غيره والبارتندر؛ يشبه «نورمان بيتس».

فرصة نادرة، ليس سهلًا أن تتكرَّر، لم يسبق أن كان الدوّار الثالث خاويًا، والحانة معزولة مثل اليوم، لا حركة ولا أصوات للناس أو السيارات التي تظل ضاجّة ليل نهار، اليوم أضحت «الريفيرا» معزولة. نُزل «بيتس» كان معزولًا كل الوقت.

عندما تنفجر الحرب، ويُهزم الناس بالمفاجأة قبل أن تهزمهم الطائرات، لا يبقى ملجأ لهم أكثر أمنًا من بيوتهم، وإن لم تكن آمنة. يفتشون عمَّن يحبونهم ليخفوا خوفهم عندهم. لا أحد يفكر أن يلتجئ إلى حانة، أو خمّارة، ولا حتى إلى مسجد.

«لا يُعقل أن يضيِّع «ذيب بيتس» هكذا فرصة. لو كانت مكانه لما أضاعتها منها، ولا تردَّدت في الإقدام على عمل غريب، جنوني، وفانتازي، وإنْ كلّفها حياتها».

***

لم تعُد القبلات داخل السيارة كافية..

لو أنَّ عيسى تأخَّر أكثر بدعوتها إلى بيته ولو لم يأتِ إلى عمان في ذاك الربيع البارد لسألته هي أن يفعل. لم يعُد عندهما القدرة على احتمال غيابه الذي يطول، ولم تعُد القبلات ولا العناق المحموم داخل السيارة كافية لإطفاء لظى الشَّهوة الحارقة، فليتزوَّدا بقطرة عشق يظلّ شذاها عالقًا في نفسيهما المتأججتين وَلَهًا حتى يعودا ويلتقيا.

كلّ ما في البيت الصغير الذي تمتدّ بسطته على الدَّرَج الهابط من الدوّار الأوَّل إلى طلوع «منكو» كان مهيّئًا لهما، وكأنه منذ أن بناه عيسى وفَرَشَه بأثاث بسيط مريح، في حالة انتظار لا يعرف أين أو متى ينقضي. الصالة المستديرة الصغيرة التي تتوسَّطه ضمَّت في حضنها طاولة مغطّاة بدانتيلا نبيذيّة عابثة، وُضع عليها شمعدان انتصبت عليه شمعتان حمراوان ما زالتا عذراوين. مقعدان متقابلان وكأنهما يتحيَّنان الفرصة للعناق. ضوء أصفر ناعم، ألقى بلون الورد على الستارة التي خبَّأت خلفها النافذة المطلّة على وسط البلد، وجدران عُلِّقت عليها لوحات لوجوه غامضة، وآية الكرسي.

صوبّة البَواري كانت أوَّل مَا دبَّت فيه الحياة، أُجهض انتظارها عندما فتح عيسى مجرى نقاط الكاز فيها، ثم انحنى وألقى بعود ثقاب مشتعل في حوضها المبتلّ بالوقود.

«انتظرتكِ طويلًا»..

الحبُّ ليس سوى إقصاء للحواجز التي تقف بين العاشقين، عندما لا يعود لديهما القدرة على تحمُّل أي حاجز بينهما تصنعه نسمة هواء، أو صوت، أو حتى فكرة؛ يتماهيان في ملكوت وجود لا يكون فيه أحد سواهما. لم يكن بمقدور وجدان وعيسى لتحطيم الحواجز التي تفصل بينهما، غير أنْ تمتد أياديهما خلسة متسلِّلةً فوق الطاولة التي تضمّهما في مطعم أو في السينما، أو أن يجمعَ أصابعها الرشيقة الطويلة بكفِّه وهما يقطعان شارعًا منزويًا بعيدًا عن عيون الفضوليين، بهذه الحركة المتمردة على الكون كانا يشعران وكأنَّ روحيهما تتوحَّدان. ليست الشهوة هي التي روّضتها، وحرَّرتها، بل ذاك البون الشاسع الذي يفرقهما، والحواجز الكثيرة التي تسكن بينهما والتي كانت تكتم على أنفاسها من قبل أن تعرف عيسى.

ليلة مضت ثوانيها بأناة لا تريد أن تنقضي. أولجها عمره، جال بها محطّات حياته، أراها مولده، وفرح أبيه بمقدمه، أشركها لعبه مع الأولاد في الحارة، ذهبت معه إلى المدرسة، وإلى معهد المعلمين، وإلى مركز بعثة المُدرِّسين إلى «الكويت». أوقفها قرب المصوِّر الذي التقط صورته المؤطَّرة المركونة فوق منضدة في الصالة. طار بها إلى الخليج البعيد، وساح بها في أحلامه.

نذرت نفسها لعيسى عن طيب خاطر، لقد جعل لعمرها شكلًا آخر جميلًا، حرَّك فيها اليقين بجدوى الحياة، فلم تعُد تخاف من فوضاها، ولا

انتكاساتها، ولا من مفاجآتها. هنا على هذه الأرض يقبع فرح البشريّة، في بيته الذي صار وطنها كانت تجده في انتظارها حتى وهو مسافر، تحكي له عن أخبارها، تعاتبه على تأخُّر رسائله وإنْ لم تكُن قد تأخَّرَت، وتشكي له ضعفها من وحشة المدينة.

قبل أن يرجع لعمله أعطاها نسخة من مفتاح البيت، لم تقبل فكرة أنْ تأتي إلى هنا دون أن يكون معها، أقنعها بأنه سيكون حاضرًا دائمًا، صدَّقت تلك العبارة الساذجة، وصارت كلَّما شدَّها الشوق تمشي من عملها لدرَج «منكو» ثم إلى المصطبة التي تدلف من عتبتها إلى حضنه.

عرَّفها بصديقه نافذ في منتزه اللويبدة، قدَّمه لها على أنَّهُ توأم روحه وصديقه قبل أن يصبح زوج أخته. أخبره أنَّ وجدان سترعى البيت في غيابه. قال:

- لمسة المرأة تُحيي البيت، لن أضطرّ لقضاء أيام في نفض الغبار كلَّما جئتُ في إجازة. لا تظنّ بأنّي كنتُ أقيمُ عندكَ حبًّا بك أو بالمسكينة أختي، بل هروبًا من كآبة بيتي، من الآن سأجد مكانًا لائقًا أستريح فيه من وعثاء الصحراء، ومن العيش عندك.

ردَّ نافذ حينها وهو يقهقه:

- وجدان أجمل ما حدث لي أنا أيضًا، سأعيد تنظيم ساعات نومي، ويقظتي، ومواقيت عملي، لن أضطر لأبدو وكأنّي في عطلة مثلكَ

كلّما جئتَ إلى عمّان. أعتقد بأنّي ممتنّ لوجود هذه السيدة في حياتك أكثر منك.

احمرَّ وجهها خجلًا. قالت ضاحكة عندما هدأ جدل الرجلين إنَّها ستعمل جهدها كي تُبقي الغبار دون تنفيض حتى لا تفرِّق بينهما.

من لحظة أنْ دسَّت المفتاح في حقيبتها، تملَّكها إحساس غير ذاك الذي أفرحها عندما أخبرها بعد أيام من ليلتهما الأولى في البيت، بأنه يحبُّ أن يفكر فيها في غيابه أنها جالسة هنا، تصنع فنجان قهوة، تقرأ كتابًا وتسأله عن أحواله. كان ذلك في أواخر شهر شباط من سنة 1962، وكان قد مضى على تعارفهما أكثر من سنة.

تحوَّل حضورها إلى الشقة لجزء من برامج أيامها، لا يختلف كثيرًا عن ذهابها إلى عملها، ولا عودتها إلى البيت، وأكثر ضرورة من زيارة «الريفيرا». تحمل معها من المستشفى شطيرة، وحبّة فاكهة، وتدلف إليها بمتعة. صارت تؤنس وحدتها في قراءة الكتب التي تركها عيسى هنا، تشتمُّ رائحته فيها، تشعر بأصابعه وهي تقلب صفحاتها، تقبّل حروفها. صار عندها نهم ممتع لهذه الطقوس، ها هو يحاكيها ويناقشها بما فهمته، يداعبها، يصفها وهو يضحك بالساذجة كلما استعصى عليها فهم فكرة جديدة. صارت إن تأخر الوقت تضمّ الكتاب إلى صدرها وتحمله معها إلى البيت، وإن تركته تظلّ متعجلة بالعودة بسرعة لاستكماله.

بعد ثلاث سنوات من ذلك اليوم تكشَّفَ لها أنَّها لم تكن محقّة عندما قبلت أن تأخذ مفتاح الشقة، وأن تعتاد عليها وتصير دارها التي تقابله فيها إن كان حاضرًا أو غائبًا. لم تكُن تتخيَّل بأنَّها سوف تعيش تجربة مُرّة بحجم فقدها لأبيها، إلّا بعد هذه السنوات الثلاث التي عاشاها معًا. رسالته الأخيرة لم يحملها ساعي البريد العجوز، بل جاء بها نافذ الذي اتَّصل بها عبْر الهاتف وأخبرها بأنه يريد أن يراها لأمرٍ مهم. صوته المنكسر كان ينبئ بأمرٍ كارثيّ. أخبرته بأنها سوف تنتظره في «مطعم جبري»، في الوقت الذي يحدِّده.

كانت بانتظاره قبل أكثر من ساعة عن الموعد الذي اتَّفقا عليه. لم تطلب شيئًا لتشربه، من لحظة أنْ دَفَعَ باب المطعم، بدا مضطربًا، وينوء بحملٍ ثقيل. كان يستكشف المكان بعينيه وكأنه يتوسَّل أن تكون قد أخلفتْ ميعادها. أشارت له من بعيد، دنا منها، سلَّم عليها وجلس قبالتها، سألها عن أحوالها. كان يبدو متعجِّلًا لإنجاز مهمّة صعبة أُجبر على تنفيذها. سألها أن تشرب شيئًا، أجابت بالنَّفي، طلب له فنجان قهوة.

لم تكن علاقتها بنافذ تسمح لها بأنْ تتعجَّله بالإفصاح عن سبب لقائهما المفاجئ الذي لم يخبرها عيسى عنه. تُراها مسألة تخصّ أهله وعلاقته بها. إنْ كان الأمر كذلك؛ لماذا لم يواجهها هو بذلك؟ فكَّرَت.

لم يطُل حضور نافذ، قبل أن يشدّ على يدها، ويستلّ من جيبه ظرفًا أبيض، قال وهو يناولها إيّاه:

- لقد مات عيسى.

أكمل وهو عاجز عن تصريف كلماته: «أتعبني موته وأتعبتني وصيّته بأن أنقل لكِ هذا الخبر مواجهةً، أنا أضعف من أن أشدَّ أزرك»، غرقت عيناه بالدموع، وتابع: «لم يرغب في إخبارك عن مرضه الذي اكتشفه الأطباء فجأة، ولم يمهله طويلًا. لم يكُن يريدكِ أنْ تَريهُ وهو يعاني، لذلك استمرَّ في كتابة الرسائل لكِ حتى هذه التي كتبها قبل وفاته».

سكت، لم يجد ما يفعله غير أن يبحث عن بوّابة الخروج قبل أن تتهاوى وتسقط أمامه. لقد حطَّت الفجيعة على وجدان من لحظة أن سمعت صوته بالتلفون. وقبل أن تسمع عن موت عيسى. دفع ثمن فنجان القهوة الذي لم يتذوَّقه، استأذنها بالانصراف، ومضى دون أن ينظر خلفه. تركها وحيدة مع فجيعتها والرسالة.

عرفت خط عيسى على الظرف. رسومه التي يتفنَّن بها عندما يكتب اسمها. فتحت الرسالة التي لم تكن قادرة على قراءة كلماتها، تمايَلَت أمام وجهها خطوط هادئة باهتة أخدت بالتَّلاشي، لا طابع بريد على الظرف، ولا أختام تشتكي من طول سفرها ومن الأيادي الكثيرة التي تداولتها. غابت عن الأوراق رائحته الشذيّة وملمس أصابعه، لم تفعل ما اعتادت عليه كلّما وصلت منه رسالة؛ أن تقبِّل كلّ زاوية، وكلّ كلمة فيها قبل أن تحضنها وتُسكنها صدرها. لم تشعر برغبة لفعل شيء من ذلك كلّه.

رجعت إلى البيت، انزَوَت في غرفتها، فتحت الرسالة الأخيرة مرَّة ثانية، صارت نظراتها الحائرة تتقافز فوق الكلمات دون أن تفهم شيئًا، ماذا يريد أن يقول؟ هل صار غامضًا عصيًّا على الفهم؟ أم أنَّها صارت عاجزة عن الفهم؟

«يا الله، ما الذي يجري؟ أين ذهب عيسى؟»..

كتب لها؛ أنه لم يعُد يدري ما يحدث له، وكيف أصبح للمرّة الأولى في حياته عاجزًا عن اتِّخاذ قرارته بنفسه. توسَّل لها بكلمات موجعة أنْ تسامحه لأنَّهُ مقدمٌ على أمرٍ لم يقدر على ردعه. ولم يجرؤ على الطلب منها أن تشاركه في مواجهته وتعينه عليه.

قرأت بدهشة كلماته الغامضة:

«مشاعرنا واحدة. أعرف ذلك، لكن في رضوخي لِما هو قادم سوف نختلف. لن يكون سهلًا عليَّ أن آخذكِ معي إلى عمري الممتلئ بالألم لكي تَريهِ بالعيون التي أراه بها. أشعر بأني ما عدتُ قادرًا على كتابة ما أحسُّ به، لن تسعفني الكلمات، فقد طغى حبّي لكِ على الأرض كلها، أحبكِ كنفْسي التي صرتها، أمضي عنكِ إليكِ، أرحل لأقترب منكِ، أصلّي لسلام روحِك كصلاتي لروحي. لماذا جئتِ لعمري وحمَّلتِهِ وجعًا عظيمًا جديدًا؟ حزني عليكِ من حزنك عليّ! أعرف بأنّي سوف أحمِّلكِ هذا الوجع البشع برحيلي؟ أعترف بأني لم أقدر على مواجهتكِ، ولا أنْ

أواجه شوقي للنَّظر في وجهكِ للمرّة الأخيرة. لا أخاف أنْ تهزميني، ولكنَّني أخاف أنْ أُهزم عندما أرى حزنكِ، فأموت مرَّتين».

ألقت بأوراق الرسالة الطويلة أمامها، حاولت أن تنسى ما كُتب فيها، لكنها لم تستطع إخراج جرس الكلمة الأخيرة التي بقيت تتردَّد في رأسها مثل ناقوس؛ «وداعًا».

***

نهاية بائع متجوِّل..

المهنةُ جينٌ مُتوارَثٌ. ظلَّ أيوب الزَّحّار يحمل مهنته معه مثل اسمه ولون بشرته ولهجته إلى أن اختفى، وخرج من بيته في جبل القصور دون أن يودِّع زوجته التي كانت تولِّد امرأة في جبل التاج، فقد غادَرَت القابلة وداد البيت قبيل الفجر برفقة صبيَّين صغيرين جاءا وهما يلهثان تعبًا من طول الطريق، وخوفًا من الظلمة، وطلبا منها أن ترافقهما لتوليد أمهما. خرج أيوب، ولم يعُد.

آخر لقاء له بزوجته التي يعشق وجودها كان عندما نبَّهته بهزّات خفيفة بأطراف أصابعها، وبمناداة اسمه بصوت يشبه الهمس، لتخبره بأنها مغادرة. كتبت على قصاصة صغيرة اسم الأسرة التي استدعَتْها وعنوانها. استكمل أيوب نومه الهادئ دون أنْ يعلَقَ في رأسه غير فكرة كم تتعب شريكة حياته في مهنتها التي لا تقدر أنْ تتركَها أو أنْ تتقاعَدَ منها إلّا

بالموت! فهي لا ترضى أنْ ترُدَّ أحدًا جاء لبيتها يطلب مساعدتها، والنساء الحوامل لا يقبلن غيرها لتولِّدهنّ، حتى الأزواج الذين تتكاثر ذريّاتهم مثل الأرانب، لا يقبلون أنْ يَكشفَ عريّ نسائهم أحد غير المرأة البيضاء الممتلئة، ذات الشعر الأشيب والنظّارة السميكة، وصاحبة الابتسامة الملتصقة بفمها، والكلمات المُطَمْئِنة.. وداد الزَّحّار.

أفاق أيوب صبيحة ذلك اليوم، غسل وجهه، بدَّل منامته، وقرأ العنوان الذي وضعته زوجته على الأريكة المعتادة، ابتسم للحروف المهتزَّة التي كُتبت بها في العتمة على عجل. مسألة تحدُث في السنة عشرات المرّات، يتملّكه الشعور ذاته بأنه ممتنّ للعادة هذه التي صارت لازمة حلوة في حياته.

تناول رغيفين من الخبز، غمَّس بهما حفنة من الزعتر والزيت، أكل معها بضع حبات زيتون. شرب إبريق شاي كاملاً سخَّنَت الابنة ماءه على البابور الذي كان يبعث ضوءًا أزرق، وصوتًا رتيبًا يعيد للمتنبِّه من النوم النعاس. ناوَلَ الصبيّة التي كانت تتهيَّأ للذهاب إلى مدرستها قرشًا كاملًا.

فَرَدَ قطع القماش الملوَّنة على المسند الخشبيّ الذي صار بديل الحمار، شدَّه بخيط مصّيص، دسَّ متر القياس بجيبه، رفَعَ بضاعته عن الأرض، وأراحها على كتفه. ألقى سلامًا على الابنة المنشغلة بشؤونها، رسَمَ لها على فمه ابتسامة حلوة، خرج من البيت، ولم يعُد.

عندما أُخرج أيوب الزَّحّار من حيفا مخلّفًا وراءه بيته وبضاعته، بقي متعلّقًا بفرح النَّجاة بكل ما ملكته يداه؛ زوجته وداد وابنته. خبرته بالتنقُّل بين الأزقة والاختباء سهَّلَت عليه قطع نصف الطريق الطويلة المتجهة صوب مرج بن عامر، لاحقًا بأهل حيفا الرّاضخين لقرار الحاكم العسكري الإنجليزي بالجلاء عن المدينة. في ذاك الربيع النيسانيّ المدهش، اختلطت بنفسه مشاعر عجائبيّة، حطَّها فيه عبق الأزهار، ونسمات الكرمل الباردة، وصوت موج البحر الناعم، وروائح الطوابين، وأنفاس الصائمين.

فكَّر بأنَّ مَن أصدر قرار الجلاء عن هذا الكون الرائع، في هذا التوقيت بالذات، مخلوق متوحِّش. أحسَّ بأنَّ كل حيفاوي، وليس هو وحده، سيُهزم قبل أن تشتعل المعارك، وإن لم يقتلهم الغازي فسوف يُقتلون برصاصة الهجرة، رضخ لحكم الناس الهلعة، ورضي بما قرَّروا أنْ يفعلوه ومضى بحماره والمرأتين خلفهم.

ظلَّ يسوق زوجته وابنته التي صارت قريبة من البلوغ على صهوة شريكه المخلص إلى أن هوى صريعًا من الإنهاك والشيخوخة. لم يرضَ أنْ يترك جثَّته نهبًا للضواري، سحبه بكل جهد كان يحتاج إليه لإكمال هجرته، إلى أن أظلّه تحت شجرة توت عظيمة. وقف فوقه باكيًا، متفكِّرًا بالإثم الذي اقترفه بحقّ هذا الرفيق، لو أنه فكَّر بأن تتبادل المرأتان اعتلاءه، أو لو أراحه قليلًا لما كان قد قضى بهذه السرعة.

بحث عن أعواد حطب ثقيلة، وضعها فوق جثّة الحمار الذي كان هادئًا، مستريحًا. أنجز مهمَّته أمام نظر زوجته وابنته المستغربتين، أسندهنَّ ذراعيه وتابع مسيره. عند إطلالهم على طريق معبَّدة مهجورة لمح شاحنة تسير متثاقلة بقدمها وحملِها المكشوف للسماء؛ أعداد كبيرة من الرجال، والنساء، والأطفال. أطلق سراح المرأتين ونزل الجبل هابطًا بساقيه المتمرِّستين بالمشي، وخفَّته في القفز بين الأحراش، مخلِّفًا وراءه غيمة من الأتربة والحصى المتطاير، أجفل سائق الشاحنة عندما لمحه قادمًا من بعيد ووصل إلى الطريق العام قبل أن يتجاوزه. وقف أمامه منتصبًا ملوِّحًا بيديه. لم يحتَج السائق لجهد كبير ليدوس على المكابح التي تلقَّت نعاله ورضخت بلحظة سريعة لها. عرفه السائق وبعض الركّاب الذين أوشكوا أن يموتوا رعبًا عندما هزَّهم الوقوف السريع للشاحنة. لقد حسبوا أنَّ اليهود قد لحقوا بهم.

عند منتصف الليل وصلت الشاحنة إلى سهل جنين الذي كان ساكنًا ومعتمًا. لم يستوقفهم أحد هناك، ولم يخرج متطفِّل من بيته ليستعلم من أين ينبعث صوت المحرِّك الثقيل الذي يعبُر المدينة. ظلَّت الشاحنة ماضية على غير هدى تفتِّش عن أرض تُطعِم، وتَسقي، وتدفِّئ، وتؤمِّن بلا مقابل.

على مدخل بلدة كُتب اسمها على يافطة حديد صدئة «عرّابة»، أدرك السائق البقعة الخضراء التي في ما يبدو كان يقصدها. سهل صغير تغطّيه

أشجار باسقة، تُروى من بئر ماء معلّق دلْوُه في العراء. تحت أشجار الخرّوب المعمّرة، كانت تسكن بسلام «حفيرة عرّابة»، تتاخم المرج العريق؛ «ابن عامر»، مثل طفل معلَّقٍ بأمه. أوقف السائق شاحنته في بقعة نائية، وقضى والركاب ليلتهم الأولى بعيدًا عن بيوتهم.

مع الصباح تنبَّه أيوب وزوجته على أصوات رجال يتباحثون في شأنٍ ما، كان أهل الحفيرة قد تجمَّعوا منذ الفجر لاستكشاف كنه هؤلاء الناس الذين يفترشون الأرض. تحوَّل السائق الذي كان آخر مَن صحيَ من النوم إلى ناطق باسم المجموعة دون أن يُكلِّفه أحد بهذه المهمّة، على الرغم من أنَّ أهل حيفا الذين زاد عددهم على الأربعين كان بينهم المعلِّم والتلميذ والصنايعي والبائع المتجوِّل. سلَّموا أمرهم للرجل الأكثر جهلًا بينهم؛ السائق.

لا يسوس الناس شيء سوى الخوف. عندما يفتِّش الإنسان عن النجاة، يصنع الأمل كيفما يكون، وإن لم يكن فيما يصنعه أي أمل. بتخيُّله أنه قد استنفد الوسيلة دون أن يفكر أو يجرِّب، يرمي بمسؤوليَّته على مَن يتنطَّع ويدَّعي أنه قادر على حملها بدلًا منه. لم يتفوَّه أيّ واحد من الحضور بكلمة، ولم يجرؤ على مقاطعة السائق أو تصويبه وهو يصف كيف ناور بشاحنته، وتجاوز مكامنَ اليهود حتى استطاع أن ينجو بفرقته.

أخذ سكان «الحفيرة» يتسابقون في تأجيج نيران طوابينهم لصنع الخبز لإطعام عابري السبيل الحيفاويين. سحبوا دلاء الماء من البئر ليسقوا

ضيوفهم. فتحوا بيوتهم للنساء والأطفال لقضاء حاجاتهم. ومضى صبيتهم نحو الكازيّة القريبة يحملون «جلنات» لملئها بالسولار من أجل الشاحنة.

قبيل الظهر سكن الهرج وخمدت الطوابين، بعد أن مضى الفلاحون إلى حقولهم، وصار المهاجرون يتباحثون في ما يجب أن يفعلوه. وقف واحد منهم، وكان رجلًا طويل القامة، تنحنح، التفت إلى السائق، منتظرًا منه الموافقة على أن يبدأ الحديث، وعندما هزَّ الثاني له رأسه غير معترض، انطلق لسانه بالكلام:

- أقترح أن نقيم هنا بضعة أيام، يجب ألّا نبتعد كثيرًا عن حيفا. الأخبار تقول إنَّ جيوش الدفاع العربيّة قادمة من شتّى الأقطار، سوف تقضي على اليهود وتعيدنا لبيوتنا.

هلَّل عدد قليل من المتحلِّقين تحت ظلال الأشجار، أثنوا على فكرة الرجل الذي عرَّف عن نفسه بأنه كان يشتغل ساعيًا في مكتب سكرتير الحاكم البريطاني، وأنه كان يلتقط الأخبار والمعلومات التي لا يرغب الإنجليز أن تصل للفلسطينيين، ومنها هذه المعلومة.

أطلق أيوب الذي كان يراقب الجدل المحتدم بصمت على هذه الفئة المتحمِّسة الآملة بما تحمله الجيوش العربية لقب: «عتّالي الأمل». فتَّش عن نفسه بينهم، لم يجدها، ابتسم في سرِّه، وانتظر أن يسمع باقي الاقتراحات، ليقرِّر إلى أيّ جانب سيقف.

قام رجلان أو ثلاثة، دون أن يطلبوا إذنًا من السائق، بسؤال بعض رجالات «الحفيرة» المتبطِّلين عن وسيلة نقل يمكن أن تحملهم إلى قرى أو مدن قريبة، لأنَّ لهم فيها مربطَ فرس عند قريب، أو صديق، أو نسيب في ناحية من نواحي فلسطين القريبة.

لم يشغل أيوب نفسه بهؤلاء الذين أسماهم «اليائسين». طَرَدَهم بسرعة من رأسه، فهو وحيد وغريب حتى في حيفا. عشيرته «الزَّحّار» لم تكن ممتدّة أفقيًّا، بل عاموديًّا من آدم إلى ابنته وجدان آخر نسل آدم من عائلة الزحّار على الأرض. لقد اتَّفق القدر على ألّا يهب أبناء الزَّحّار سوى ولد أو اثنين. أبوه قيس الزَّحّار كان وحيد والديه، بعد أن مات شقيق له بعيد مولده بساعات، وصار بسرعة يتيمًا بعد موت أبيه في إفريقيا مع جيوش العثمانيين، وماتت أمه من التيفوئيد، ولم يكن قد وصل إلى سن البلوغ. صارع الحياة بكل ما أُوتي من عزم، إلى أن كبُر وتزوج وأنجب وحيده أيوب الذي لم يخن الأمانة مرغمًا وظلّ محافظًا على هذه القسمة مثل عبادته، فلم ينجب سوى الصبيّة التي أعياها الحزن والسَّير الطويل، وجدان على الرّغم من محاولاته الكثيرة ليحضِرَ لها أخًا أو أختًا.

فكر أيوب أن ما سيُقدِم السائق عليه سوف يكون هو الحلّ الأقل سوءًا، رجل مثله يعرف ما هو مقدم عليه من لحظة أنْ وضع أهله وجيرانه على ظهر شاحنته وخرج بهم من حيفا، هو بلا شك عالم بما يفعله، ولا بدَّ أنه يحتفظ في جعبته بخطط سوف تصل به آخر الأمر إلى الأمان، فهو

عندما قرَّر أن تكون وجهته جنين، كان قد رسم الطريق التي سيسلكها، قبل أن يدير موتور شاحنته، لذلك أوصل كل مَن كانوا معه بسلام إلى هنا. لن تكون هذه النهاية، فهو لا بدَّ وأنَّ عنده المزيد، ولم يكشف عن الفصول القادمة من رحلته بعد.

حَسَمَ أمره بأن يسلِّم مصيره لسائق الشاحنة، أينما يمضي سيمضي معه ولا شيء سيردعه عن قراره.

إذن ليجعل من خيار السائق خياره، وليسلِّم حياته وحياة أسرته لهذا القائد، وليتبعه حتى وإن قفل عائدًا إلى حيفا. عاهد نفسه ألّا يخضَع لزوجته إن لم توافقه الرأي، لا تراجُع في مثل هذه المواقف، وبهذه الظروف الغامضة. صار يرى حياته وهي تهوي أمام عينيه في هاوية عميقة. لا قبس نور، ولا بصيص أمل بالنجاة غير أنْ يمضي مع قرار السائق الذي جعل فيه الله قَدَره وقدَر أسرته، سوف يمضي معه، ويوكل أمره، وأمر المرأتين لربِّهم الذي أوحى له بفكرة أن يمضي مع الشاحنة.

لم يكن أيوب مُجالدًا، ولا عبدًا، بل إنسانًا. تُفرحه نعمة العمر. كان قانعًا بمعادلة وجوده؛ المهنة التي تسدّ رمق أسرته الصغيرة، والزوجة التي تخبِّئ له كل مُتع الحياة، والابنة التي جعلته يفرح بقدسيّة الأبوّة، والرب الذي يطمئنّ إليه، ويثق به، ويعرف بأنه لن يخذله. كان يؤمن بأنَّ خالقه هو أحلى ما عرفه في العمر الذي وهبه له، كان إذا ما مسَّه ضُرّ يعزيه لتكاسله، أو لقلّة اكتراثه، أو لأنانيّته، لا يُحمِّل أحدًا مسؤولية عجزه

وضعفه. كيف لرجل مثله ألّا تفاجئه الحرب وتعطِّل تفكيره وتجعله يتَّبع خطى سائق شاحنة لا يقصد سوى الكسب؟

زاد في إحكام إغلاق عقله مثلما فعل عندما مشى خلف الناس المفزوعين من أخبار مذابح «الهاغناه»، لم يكن خائفًا ممّا يخيفهم، بل كان خائفًا من خوفهم. حَمَلَ زوجته وابنته، ومبلغ المال الذي كان يخبِّئه تحت بلاطة في مطبخ البيت، وهرب مع الهاربين.

علّمته مهنته الكثير، وجعلته يُحكّم عقله وإن كان غير مؤهل كثيرًا لذلك، فهو لم يدخل مدرسة ولا قرأ كتابًا، ولا عرف من الدنيا سوى حيفا وبيوت وادي النساس التي كان ينادي على بضائعه بين الأزقّة المحيطة بها. كانت حيفا خليطًا من اللهجات، والأجناس، والأديان. وكغيره من التجار كان كل همه إرضاء زبائنه، أصبح مع الوقت مدجّنًا، يهزّ رأسه موافقًا على كل ما يقوله المسلم والمسيحي واليهودي، يوافقهم كلهم على أرائهم، لا يتحمَّس لشيء ولا شيء مقدس عنده سوى الرب. لقد فقد منذ زمن بعيد حماسه لهويّته، ووطنه، ودينه، ولم يصدِّق أنَّ هناك حربًا قد وقعت، وإنه طُرد من بيته. لم يتعلم طوال حياته أنَّ نار الحرب لا تُبقي أحدًا محايدًا، وأنَّ المشي قرب الحيط حتى وإنْ كان برفقة الحمار، والدعاء بالسلامة، لن ينجيه ممّا تنزله عليه السماء التي يدعو من خلالها. ليس حسُّه بوطنيّته هو القيمة الوحيدة التي استلبتها منه مهنته، بل أخذت منه قبل ذلك بكثير شقاوة الصبا والشباب.

لا تُفتح البيوت في أوجه الغرباء، لكنَّها تُشرّع في وجوه القريبين. النساء المتحرِّرات في بيوتهنّ يكنّ هنّ، دون الأوامر القاسية من الرجال، ولا النظرات الحادّة من الجيران، لا حوادث تمسسهنّ، فبيت المرأة مساحة انطلاق صوتها بالغناء، أو الصراخ، أو الغنج، وفيه ملعبها لإبراز فتنتها، وتبرُّجها، وعريّها.

بيوت حيفا لا يدخلها الغرباء. الفتيات اللّواتي اعتدن على هذا الصبيّ صاحب الشعر الناعم والسّحنة البريئة الذي كان يرافق أباه، يسوس له الحمار، ويحمل عنه الأقمشة على كتفه الطريّة إلى داخل البيوت، يراقبه ليتعلّم منه سرّ المهنة المتوارثة عن جدِّه، كان يحاول أن يحفظ العبارت التي يستعملها العجوز المتكرِّش؛ أبوه، وهو يفرد بضاعته على بلاط البيوت الممسوحة النظيفة ليجمِّل فيها بضاعته.

لم يلفت شارب الصبيّ أيوب الذي خُطّ، وصوته الذي خشُن، ولا ملابسه التي ضاقت عليه؛ صبايا حيفا، لم يفكِّرن بأنَّ رغباته قد تغيَّرت، ولم يعُد حلمه التهام أكلة شهيّة، أو اللعب مع الأولاد، ولا اكتشاف كنزً يغنيه العمر كله. صار لأحلامه أثرُها المحسوس؛ سائل جافّ على ملابسه الداخليّة، ونشوة مدهشة تصنعها في منامه واحدة من الصبايا الجميلات التي تظلّ معلّقة في خياله طوال اليوم.

مَن تُفتح في وجهه أبواب بيوت حيفا، لا يليق به أن يكون لصًّا، أو متلصِّصًا، أو محتلًّا. يدخلها، يرى فيها ما يرى، يسمع فيها ما يسمع، يشمّ

فيها ما يشمّ، وعندما يخطو خارج بابها ينسى كل ما رأى أو سمع أو اشتمّ. عندما كان يقف حمارهم أمام أحد البيوت، كان يعاون أباه على الترجُّل عنه، يربطه على حجر، أو عمود خشب، أو شجرة، يحمل البضاعة ويتبع خطى أبيه الثقيلة وزحاره صوب صوت امرأة نادَت عليه ليحضر لها قطعة قماش لثوب أو ستارة.

كان أيوب الزَّحّار يترك رجولته المبكرة مقعية قرب الحمار ويدخل البيت الغاص بالصبايا السافرات الجميلات، العبقات بروائح المستكة واللبان، لا يتحرّك فيه شيء سوى الرغبة في أن ينجز أبوه صفقته مع المرأة التي دعته، وفي شرب كأس ماء. في مهنته المتوارثة الجاثمة كجينٍ فيه، لم يكن يعنيه يهوديّة السكان، ولا مسيحيّتهم، ولا إسلامهم، ولا حتى مَن يُقال عنهم إنَّهُم بهائيون، ويخفون سرّ ديانتهم.

مهنة البائع المتجول أيوب جنت عليه، أو حرَّرته. لم تجعله أسير شيء في الحياة، ولم تطلق العنان لشهوته، ولا لوطنيّته، ولا لدينه.

- الليلة بتُّ هنا، والصُّبح في عمّان.

صرخ السائق بصوت أسمع الحاضرين المتحوِّطين بـِ«حفيرة عرابة» وعندما تأكَّد بأنه قد لفت كلّ العيون صوبه، اعتلى حجرًا، قال وكأنه يعلن بيانًا:

- عمّان مربط فرسي.

فغر الرجال أفواههم متفاجئين من هذا الحلّ الذي لم يخطر على بال أحد منهم. عمّان المدينة البكر البعيدة؟ ماذا فيها؟ كيف ستقدر شاحنتك التي أعياها الحمل والسفر أن تصل إلى هناك؟

في رأس كل رجل فزّ سؤال استغرابي، عدا أيوب الذي كان على عكسهم قد وجد جوابًا عن السؤال الذي كان يشغله؛ إلى أين يمضي بأسرته الصغيرة ويأمن عليها؟ تنفَّس الصَّعداء، فكَّر بأنَّ هذا السائق الداهية لم يرتجل قرار السفر إلى عمّان، لكنَّهُ سرعان ما تملّكه شعور اليأس من أنَّ خريطة حياته القادمة تقبع في رأس هذا السائق الذي دفعه للخيار الثالث، الخيار الأصعب دائمًا.

لم يقنعه خيار «عتّالي الأمل»، ولم يجد في دفاتر أسرته وأسرة زوجته ما يجعله يمضي مع «اليائسين» الذين سيلجؤون لمن يعرفونهم. اعترف بقرارة نفسه بأنَّ مداركه لن تساعده على الإتيان بفكرة تكون أكثر قابليّة للتحقُّق. ما استطاع فهمه بذكائه المتواضع أنْ لا بديل عن المضيّ مع سائق الشاحنة أينما اتَّجه. لم يكن هو مَن وضع معايير هذا الخيار الذي لا يعرف عنه شيئًا، لكنه صار خياره.

انتهى الاجتماع، حَسَمَ كل فريق أمره، أطلق أيوب الزَّحّار على فريقه والسائق لقب «مطاردي الأمل»، دون أن يعي أنَّ حيفا هي أمله وأنه يمضي بعكس اتِّجاهها.

- سوف أرافقك.

تعالت الأصوات مستغربة من قرار هذا البائع الذي فزَّ طيفه لهم فجأة مثل شَّبح من بين الغبار أثناء خروجهم من حيفا، اعترض طريقهم، هزّ أجسادهم، وأخافهم وجعلهم يتساءلون عمَّن يكون؟ وما الذي يفعله في هذا الخلاء وحيدًا؟ ها هو يعلن عن نفسه، ويقرِّر أنه راحل إلى عمّان وكأنه يعرف ما تكون عمّان.

تلك كانت مغامرة أيوب الأولى في حياته، أمّا الثانية فقد كانت الأخيرة، حين طحنته شاحنة مهوّرة من أعالي جبل القصور، بعد أن أفلتت كوابحها، وأخذ سائقها المرتعب يصرخ على المشاة الذين كانوا خليطًا من العمال وطلبة المدارس والباعة المتجهين لأشغالهم، أن يبتعدوا عن الطريق.

الحمل الثقيل الذي اعتلى كتف أيوب أعاق حركته. أو قد يكون خوَّفه مِن أنْ يتلف أو أنْ يتَّسخ، هو ما جعله لا يفكِّر بأن يلقي به بعيدًا. من الممكن لو أنَّهُ فكَّر بأنَّ وجوده أكثر قيمة من بضاعته لتخلّى عنها بسهولة، ولأصبح أكثر خفَّة، ولقَفَزَ إلى الناصية الثانية التي التجأ إليها مَن رأوا الشاحنة الثقيلة وهي تهوي صوبهم، ولَنَجا بنفسه. لكنَّ رأسماله الصغير الثقيل هو ما أعاق حركته، وجعله واحدًا من ضحايا الشاحنة المهوّرة.

***

الرَّسائل الفارغة تصنع احتمالات أكثر من المكتوبة..

سرير صغير، خزانة ملابس ضيِّقة، رفوف خشبيّة معلّقة كأدراج رُصَّت عليها بعض الكتب، منضدة مستطيلة تحمل فوق ظهرها قنديلًا وراديو ترانزستور صغيرا ومنفضة سجائر نظيفة وكتابًا مفتوحًا. حجارة بحرية ملساء ملقاة بإهمال وصندوق بيرة من الكرتون مبعوج وقديم وُضع بعناية في ركنٍ من المكان.

هذا هو عالم ذيب الكبير إذن؟ لم يعُد لدى وجدان رغبة في البحث داخل نفس مضيفها، لم تعُد تشبه قطتها «مشمش». لم يقتلها فضولها ولم يتململ في داخلها، خلّت دهشتها مخفيّة وراء ما يبصره ذيب منها. لو أنَّها تعلَّمت من القط «مشمش» شيئًا لما تردَّدت في فتح الخزانة، وسحْب درج المنضدة، وقلْب الكتب والنَّبش فيها، لتتعرَّف على ما تخبِّئه في بطنها، ولتكتشف السر الذي يجعل من هذه النِّتف البالية الحقيرة حياةً لإنسان. لو أنَّ فضولها غلبها، لانقضَّت على صندوق الكرتون المبعوج غطاؤه لترى بماذا يفيد غير أنه يضيف المزيد من الضيق على هذه البقعة الضئيلة.

«لقد كان محقًّا وصادقًا بوصفه لمسكنِه»، فكَّرَت وهي تتأمَّل المكان الصغير الذي جعل منه صاحبه أرضًا عصيّةً على الأغراب. أثاثٌ قليلٌ يتحامل على نفسه بصعوبة من أن يهوي إلى الأرض، جدرانٌ اصفرَّ لونها من أثر دخان السجائر، وهواء ساكن. شعرت أنَّ العدمَ المنتشر فوق كل ما في المكان يكتم على أنفاسها.

ليست الغرفة المفاجأة هي التي صعقتها وجعلتها مرتبكة ومترددة في إبداء رأيها الغاضب والمتقزِّز من غرفة كهذه يعيش فيها إنسان، لكن ما كانت توحي به حركاته وكلماته طوال الوقت من سعادة بها، حتى إنَّهُ ظلّ يتباهى بهذا الإنجاز الرخيص العابث، إلى أن أشعل الشوق فيها لرؤيته. كيف لرجلٍ يظلُّ واقفًا طوال اليوم على قدميه، يقتات الطعام ذاته الذي يقدِّمه للزبائن كل يوم، حلوه الفستق والترمس، ويغفو على سرير إنْ تقلَّب عليه وهو نائم سقط على الأرض؛ كيف له أن يكون فرحًا بهذا البؤس؟ ما يفصله عن البار لا يزيد على المتر، فكيف يصدِّق أنه ليس سجينًا في زنزانة صنعها بيده؟ ولا يفهم أنَّهُ مخلوق موهومٌ عندما يتخيَّل أنَّه في هذا المكان تقبع أعظم القِيَم، وأجمل الأكوان التي يحلمُ بها إنسان، مثلما قال أو لمَّح به اليوم. «كم هم عجيبون البشر! كيف لإنسان أن يخلق عالمًا واسعًا، من كل هذا الضيق؟».

لا شيء يشدُّها لفتح أيّ باب يمكن أن تدلف منه إلى الكلام، ولتطلق دهشتها من جوّاها، أو لتكشف عن صدمتها والسخرية التي تحفَّزت في صدرها للانطلاق. لم يكن في ملامحها ما يدل على أنَّها لن تصرخ وتهزّ المكان لحظة أن كُشف لها هذا الحيِّز الحقير المتهاوي. لقد جعلها متشوقة لأن تعرفه، حتى إنه وهو يحكي عنه كان يدفعها للقفز بخيالاتها التي تتطاير لتخمِّن أي نوع من الجمال هذا الذي يحرِّمه على الآخرين؟ وعندما انقادت له، ومشت خلفه مستسلمة، طغى خيالها حتى حسبت أنها

مـا إن تعتـب خطوتهـا الأولـى في الـداخل، سـيُفتح في وجههـا صـندوق سحري، تنبعث منه موسيقى لِـ«باخ» أو «موزارت»، وترقص على أنغامها باليرينا حيّة.

لم تَجد في داخل الأفق الحزين مقعدًا تجلس عليه، ولا سريرًا يعلن أنه قادر على احتمال جسم يزيد على وزن ذيب النَّحيل، ولا لوحة أو صورة مقصوصة من مجلة معلّقة على الحائط، ولا بلاطًا رخيصًا يفرش الأرض، بل صبّة إسمنت فوضويّة.

«إذن هذا هو عالمكَ الذي يغنيكَ عن العالم؟!»، فكَّرَت بقهر.

وكأنه يقرأ أفكارها؛ ببطء فتح علبة السجائر العرقة بكفّ يده، سحب منها واحدة، أشعل عود ثقاب، أحرق فمها واستنشق عبقها حتى وصل أقاصي صدره، نَفَثَ غيمةً من الدخان الأبيض، قال:

«لا أريد أن تتعجَّلي بحكمك على ما ترين أمامك الآن، دعينا قبل ذلك نُعدْ قراءة بعض التفاصيل الصغيرة لِما يملأ حياتنا، هل فكَّرتِ بمعنى القيمة في الأشياء؟ ما الذي يجعلها جميلة أو ثمينة؟»، لم ينتظر جوابًا، تابع: «ليس نحن، وإنْ حاولنا إيهام أنفسنا بذلك».

لُجمت، فغرت فاها دون أن تنطق بحرف. «ماذا يكون هذا الذي يعي حقيقة بؤس ما هو فيه، لكنه يجمِّله؟»، صرخت داخل صدرها حتى كادت تشقّه؛ «كيف عرف ما أفكِّر به؟».

لم يُعِر تعابيرها انتباهًا، أكمل:

- القيم التي في ما تحبّينه، ليست من اختيارك، بل من خضوعك. أنت كالآخرين تُخضعين ذوقكِ لمن يتحكَّمون به، هؤلاء لا يعنيهم الجمال الذي تصنعه البشريّة من أجل الفرح، الجمال الذي نعرفه واعتدنا عليه وأصبحنا نسمعه ونلبسه، ونأكله، ونسكن فيه، ليس هو ما نريده، بل ما يريدونه لنا، ولا مفرَّ منهم سوى بالفهم، ورغبتنا في أن ننظر للروح التي في الأشياء. ذائقتكِ للجمال مسألة تعنيكِ أنتِ وحدكِ، لكنكِ تحتالين على هذه الذائقة وترضخين لذائقة وضعها الآخرون لكِ، حتى إنكِ مع الوقت تصيرين تؤمنين بها وترفضين ما يخالفها وكأنها نتاجكِ وإيمانكِ أنتِ. أليس في هذا مأساة عظيمة؟

سكت لفترة من الوقت، أشعل سيجارة جديدة، قال:

- لقد نجحتُ بالإفلات من هذه المصيدة، قيمة هذا المكان فيّ أنا الذي أبقيتُ على ذائقتي ولم أسمح لها أن تخضع لذائقة أولئك الآخرين الذين جعلوا منّا راضخين إلى أن أفقدونا الثقة بما نحبّ. هل تعرفين أين يكون الوجع؟ في أنَّنا نُخضع عشقنا للجمال لأناس ليسوا معنيّين به.

جلس على السرير، ظلَّت ابتسامته تكبر وقد صار يشعر بأنه قد استولى على كلِّها: صمتها، تسارع أفكارها، نظراتها المتنقلة بين فمه وأشياء مسكنه البالية الرَّخيصة.

أكمل بثقة المُنتصر: «يجب أن نكون نحن الذين نقرِّر ماذا نحبّ». أنهى فكرته، انتصب واقفًا، صفَّق بيديه، «هذه مملكتي».

هل أضحت سجينة إنسان مجنون، هي لا تعرف ماذا يخبئ في جعبته؟ لكن أيّ جنون هذا الذي يجعل صاحبه متنبهًا لكل هذه التفاصيل؟ مَن المجنون؛ هو، أم هي التي تريد أن تسلب من عينيه الجمال الذي يراه بغير ما تراه عيناها؟ فكّرت. كل شيء حولها جامد، لا روح فيه. هنا مكمن السرّ، هنا اللعنة التي ينزلها على مَن يعبرون جحيمه الغامض، تُيبِّسهم وتجعلهم يتحجَّرون، يصبحون مثل تماثيل من الصخر، تتجمّد أفكارهم، يتيهون في عوالمه المسحورة وتقذفهم بعيدًا عن الأرض، لقد دفعها للخضوع إليه، ثم لجمها، فلم تعُد قادرة على الرّد على ما يهذي به. ودَّت لو أنها استطاعت أن تُخرج من فمها عبارة واحدة: «جمال الأشياء يكمن في توافق البشر عليه»، لكنها أُخرست. سألت نفسها بغضب: «لِمَ لم أقدر على الكلام، لماذا سكتُّ وقد قضيتُ يومًا كاملًا أكلِّمه؟ هل حجّر لساني، لكنه لم يبلغ عقلي بعد؟ تراه خبّأ المرأة التي جعلت الآلهة أثينا كل مَن ينظر إلى عينيها يتحوَّل إلى حجر؛ «ميدوزا»، وصيَّرني حجرًا؟».

عاد إلى تفكيرها من جديد فيلم «هيتشكوك»، الأفكار السريعة المجنونة التي أخذت تتوالى عليها جاءت في غير وقتها، ومتأخِّرة كثيرًا وإلّا لحكتها لِعيسى ونافذ عندما خرجوا من السينما وصاروا يتناقشون في

أحداث الفيلم المُفزعة، واختلفوا في شرح شخصيّة بطل الفيلم المركّبة والمريضة.

ما الذي يفعله هذا الرجل الذي سطا على يومها، وصار يتلاعب بها، جعل عقلها مشتتًا غير مستوعب كيف يقدر عليها، يريحها حينًا ويفزعها أحيانًا؟ لو أنها اهتدت وقتها لفكرة أنَّ «نورمان بيتس» لم يكن مريضًا مثلما أراد له «هيتشكوك» أن يكون، بل كان مفكِّرًا يحاول معرفة السبب الذي جعل القدماء يهتدون للتحنيط، لأنه لم يكن مقتنعًا بآراء العلماء الذين اعتبروه بوّابة لخلود البشر، فقد كان يرى فيه فكرة لتخليد الحكم وليس الحاكم. هو لم يدفن أمه، تركها تتحكم به وهي ميتة، قرَّر أن يوحِّد الحياة مع الموت، أقدم على تحنيط جثّتها بعد أن قتلها وصدَّق وهو يقلِّد صوتها ويرضخ لأوامرها أنها خالدة، وأنه قد أعاد الروح لها. لا يختلف البشر اليوم عن المريض النفسي «نورمان بيتس»، فهم ما زالوا يعلّقون صور حكّامهم الميتين على جدران بيوتهم، لا لأنهم يريدون أن يُخلدوهم، بل لتخليد أنظمتهم.

ملأ «بيتس» مكتبه بطيور محنَّطة، لا ليتفاخَرَ بعبقريّته في تحنيطها، بل لاستعمالها طعمًا لاصطياد نزيلات الفندق، كان يرى في محنَّطاته حالة جدليّة تجمع الموت بالحياة. لكن ما الذي يراه ذيب في هذا الخراب؟ وأي روح تلك التي يريد أن يبعثها في هذا الجحر؟ لا جيف محنَّطة هنا، ولا أم تصرخ عليه من بعيد تأمره بأن لا يُخدع بالعيون الخضر التي سلبته.

فكّرت لو أنها تذكّرت هذا الفيلم مبكرًا، لَما وافقت على قضاء اليوم وحيدة مع ذيب، ولَما استسلمت له وانقادت مثل طفل أعمى إلى مذبحه الحقير.

«غبيّ أنت يا «بيتس»، لقد قدرتَ على خداعي مثلما فعلتَ مع كل اللواتي استحوذتَ عليهنّ وقتلتهنّ، لكنكَ ما عرفتَ أنه سيأتي بعدك مَن يخدع النساء ويوهمهنّ أنهنّ لا يرينَ الحقيقة؛ وأنَّ في قبح الأمكنة جمال أزليّ». أبحرت في أفكارها الغريبة وكأنها جالسة مسترخية وحيدة تقرأ في كتاب مشوِّق.

الجنون حالة واحدة، انتزاعه من داخل الرأس وكشفه للناس هو الذي يجعله مختلفًا، لقد طوَّعها ذيب وتمكَّن من قنصها واصطيادها بسهولة. فلتتهيَّأ لِما هو آت، أعدّي نفسكِ للمُواجهة إذن، فتشي بعينيك عن أسرع طريق للهرب، أو عمّا يمكن أن تدافعي به عن نفسِك إنْ حاوَلَ أنْ يقنصك.

قرَّرت أن تراقب حركاته وتقرأ ما يختبئ في عينيه، تصيخ السمع حتى تستطيع أن تحصي دقات قلبه، وتسمع صوت أنفاسه إنْ بدأت بالتَّصاعد، لتقرأ أفكاره التي يكشف عنها، وتلك التي لم يطلق لها العنان، وحتى التي لم تقدر على سبر أغوارها بعد.

تملَّكها خوف أعتى من خوفها من الغارات وحرس السفارة. لم تكشف ملامحها شيئًا من أفكارها الكثيرة المتسارعة، ولم يكن ذيب

بحاجة لأن تفعل، فقد كان مدركًا أنْ لا أحد يرى الأشياء بالعيون التي يراها بها الآخرون، لكنه لم يخطر له أنها أضحت خائفة منه:

- الدَّهشة تصنع في الكائنات جمالًا خاصًّا، حتى إنْ حاولوا إخفاءها.

قال بصوتٍ خافتٍ خرج من فمه إثر ظلّ ابتسامة، أكمل وهو يعيد ترتيب أشيائه المرتَّبة أصلًا:

- أعرف أنكِ مندهشة من ضيق المكان، ومن بساطة الأشياء التي فيه. ما نعتاده، ونعجز عن الانفصال عنه، يصبح مع الوقت جميلًا، نحن نجعله كذلك أو نوهم أنفسنا، لا فرق.

فكّرت؛ «أي دهشة هذه التي يخرِّف بالحديث عنها؟ هي ليست دهشة يا صاحبي، بل خوفًا».

أخذ يتحرَّك في موضعه بحثًا عن شيء يفعله محاولًا أن يواري انكشافه الذي ينازعه للانطلاق أكثر. قال وهو يعلِّق عينيه على الجدار الضيِّق:

- كلّنا نعيش بالطريقة نفسها.

بقيت وجدان صامتة، بعد أن أفقدتها كلماته شهيَّتها للتخيُّل. توقَّفت عن التَّحاور مع نفسها، انتظرت أن يُفصح أكثر عمّا اعتقدت أنها تعرفه.

- الناس تقبل وتُجمّل أشكالها وملامحها، وحتى التشوُّهات التي فيها، تحبُّ مهنتها التي تبغضها، وأهلهم وإنْ كانوا بغيضين. الحب يصبح أمرًا سهلًا بالتعوُّد، القبيح الذي لا أمل في تجميله لا يوجد سبيل أمامه للنجاة غير أنْ يعتاد على شكله، إنْ اعتاد رضي به، وإن

رضي أحبَّه. أنتِ وإنْ لم تقبلي أهلكِ، أباكِ وأمكِ وإخوتكِ، وجنسيّتكِ ولغتكِ وحتى دينكِ، تدفعين نفسكِ للتعوُّد عليهم ليصبحوا لكِ مقدّسين وليسوا محبوبين فحسب. لقد اعتدتُ هذا المكان، جعلتُه عالمي، لم أرَ في العالم الذي من حولي شيئًا أجمل منه. صنعتُ جماله بإرادتي وحريَّتي، لقد وجدتُ أنه الخيار الأسهل للعيش. أمّا الخيار الآخر يا عزيزتي...

توقَّف لبرهة عن الكلام، ثم قال وكأنه يلقي بحجر ثقيل فوق رأسها:

- الانتحار.

تساءلت، كيف يتسنّى له أن يصنع أفكارًا بهذه السرعة، ثم يحكيها وكأنَّها إيمان راسخ وليست سوى فكرة طارئة، وُلدت لتوها مثل الأفكار الكثيرة التي تدور في خلدها الآن؟

«ما من خيار ثالث؟» سألته. أخيرًا استطاعت أن تُبطل سحره وتحرِّك لسانها وتجعله يرجع للكلام.

«يوجد؛ لكنه الخيار الأصعب» ردّ ببساطة.

«أصعب من الانتحار؟» سألته وهي مكتظّة بخليط من الراحة لأنها عادت تشاركه الكلام والاستغراب من الأفكار التي لم تتخيّل أنْ تسمعها من هذا «البارتندر» الصامت.

التقط نفسًا عميقًا، وكأنه كان مستمتعًا بجَلدها، هتف كالمنتصرين:

- الجنون.

صارت متيقنة وهي تسمعه يتكلم عن هذا الشكل من الخلاص، أنها لم تهتدِ بعد إلى تصنيف بشري يمكن أن تدرجه أسفله؛ فيلسوف، مفكر، مستكشف، أم مفصوم؟ أعادت تجميع شتاتها، ألقت بعيدًا عنها أفكارها السينمائيّة الدّامية، وبَّخت نفسها معاتبة كيف لها أن تظلمه، دون أن تجرِّب أن ترى فيه رجلًا مشبعًا بأفكار ورؤى كثيرة لكنه لم يجد مرساه بعد؟ صار لزامًا عليها الآن أن تستدرك الأمر، وأن تلحق به إلى النقطة التي وصل إليها. لقد انطلق مسرعًا وخلّفها وراءه وهي لا تزال تتهيَّأ للعدوِ عاجزة عن إدراكه. لقد ألقى عليها تعويذته وحجَّرَها وسلب خياراتها، لكنْ عادت لها الروح الآن، ولا بد أنها قادرة على إيجاد وسيلة تجعلها قادرة على اللَّحاق به، قالت بصوت ضعيف مكسور:

- ألا ترى أنَّ المكان ضيِّق؟ أفترض أنَّكَ تريد مساحة أوسع لتكون حُرًّا؟

ردّ بلا اكتراث:

- لا مزيد، هذا يكفي، هنا جُمِّعت كل أشيائي.

صَمَتَ لبرهة ثم أكمل وهو يبتسم:

- ألم تلاحظي أنَّ هذا المكان قد استوعبنا معًا.

في محاولة لتجنُّب عبارة الغزل التي نطقها برقّة، عجّلت في سؤاله:

- كيف تصل الشمس إلى هنا؟

أجابها بلا تفكير:

- أجلبها أنا، أدعوها وتلبّي. مثلما دعوتكِ ولبَّيتِ.

أكمل بحماسة، متجاهلًا نظراتها الحادة التي عادت تشعل في رأسها أفكارها المجنونة، وقد صار أكثر ارتياحًا:

- أقضي وقتًا طويلًا في الصباح جالسًا أمام بوابة «الريفيرا»، أعدّ إبريق قهوتي، أفتح علبة سجائر جديدة، أضع على الناصية كرسيًّا، وأجلس لأفرح بالحياة. أستلذّ بشرب القهوة وإشعال السجائر، والتقاط الشمس ومراقبة الناس وكأنّي أشاهد مسرحيّة للمرة الألف، أجمع التفاصيل الصغيرة التي تصنعها حركة الناس وأصواتهم وتبدُّل أشكالهم وملابسهم، ألتقط بجسدي وأنا أشاهد هذا العرض أشعة الشمس التي تلقي بها عليّ وهي تتعالى لتكمل حضورها في السماء، وأنا أكمل حضوري على الأرض. إنْ أمطرت أفتح المظلّة، أبقى على حالي إلى أن تدقّ ساعة العمل، أدخل إلى هنا حاملًا حصَّتي من الشمس والمطر، أنفضها بلطف على الأرض، أتركها طوال النهار، أعود وألملمها بعد أن أُغلق المكان، أنفض عنها الغبار، أعلِّقها على الحائط، أو في رأسي.

فكَّرت وجدان التي ظلَّت واجمة وهي ترى كلماته تتهافت ساقطة تحت قدميه، «هل عاد له جنونه؟»، لم يسعفها فمها بالكلام، ولا حتى بالإيماء. «لقد جُنَّ فعلًا».

لم يعرف لماذا قرَّر أن يعينها على تجاوز الحيرة التي بدت عليها، هل ارتاح لها أكثر؟ أم أنه ملّ من هذا الفصل الذي طال كثيرًا؟

- لقد اكتشفتُ شيئًا غريبًا يحدث لعمّان؛ إنَّ كل شيء ثابت فيها حتى في تغيُّره.
- «لا أفهم» قالت.
- ماذا ينتظر الإنسان من الحياة إن مَلَكَ كل شيء؟
- «المزيد» أجابته بسرعة.
- وبعد؟

انتظر أن تردّ عليه. بقيت صامتة. قال:

- كلّ كائن حيّ يعيش في وهم أن يخلد، صراع الحيوانات على الفرائس ليس سببه الجوع فقط، بل ما يختبئ وراءه؛ أن لا يموتوا. نحن البشر متطورون قليلًا عن الحيوانات، لذلك ابتكرنا فكرة التوريث، ليس حبًّا بمن سنورِّثه، ولا خوفًا عليه، بل لإقناع أنفسنا بأنَّنا سنبقى مخلّدين. إيهام ساذج للذات بأنها لا تنتهي مع الموت. لا أحد يريد أن يصدِّق بأنَّ الكائنات كلها تصبح هباءً وتزول عندما تموت، كل ما نراه وما نعيشه لا يعدو كونه شيئًا سوى الوهم.

«مَن هذا الذي يتكلَّم؟ لقد عاد المريض النفسي نورمان بيتس من جديد، «سألت نفسها»، إنْ كان فيلسوفًا فلماذا يحكم على نفسه بالسجن في هذه المهنة، وهذا المكان؟ الأهم منه أنا؛ كيف سمحتُ له أن يستلبني

ويدفعني للوقوف أمام كل كلمة يقولها برغم غرابتها؟ يا إلهي؛ ما هذا اليوم الغريب؟!».

- «هل تقصد أنَّ الحياة والأعمار التي نعيشها بكل ما فيها وهم؟» رجعت تسأله.
- لمَ لا؟ نحن نحتاج إليه حتى نعطي معنى لوجودنا. اتَّفقت البشرية منذ الميلاد على التشبُّث بالوهم حتى تتحرَّر من الخوف. الوهم هو ما ينجي البشر من أنفسهم ومن غيرهم، يوحّدهم على اختلاف تكوينهم. لقد اتَّفقوا بلا عقود أو مواثيق أنهم لن يستمروا بالعيش من دونه. لقد توهَّمنا وجود الألم والفرح والحزن والحب والحياة والموت والعقاب والثواب لفكّ اللغز الكبير الذي حيّرنا منذ بداية الحياة؛ الوجود. الإنسان الذي يكون منتظرًا الإعدام يظلّ معلّقًا بوهم حدوث معجزة تنجّيه، إلى أن يُنزع عن رأسه حبل الوهم ويعلَّق مكانه حبل المشنقة. لذلك نظلّ متشبثين بأعمارنا حتى اللحظة الأخيرة. عزيزتي الوهم هو الحقيقة الوحيدة لوجودنا.
- «الحياة كذبة إذن؟» قاطعتهُ وقد راق لها هذا الحوار العبثي.
- «هي كذبة دون شك» ردّ بالحال.
- لكنها جميلة.
- بالطبع هي جميلة وإلّا ما كنّا اخترعناها. ألا تلاحظين أننا نحن البشر ننظر للحياة من ثقب الباب؟

قرَّرَتْ أن تهرب من استكمال الحوار الذي صار ينقر في رأسها وكأنه يبحث عن ثقب يُدخل إليه الصداع. لم تفكر في أن تجيبه عن سؤاله الذي لم تفهم معناه. سألتهُ وهي تشير بأصبعها إلى الشيء الوحيد الذي ما يزال غير مكشوف لها: «ما حاجتكَ لهذا الصندوق؟ هل تخبئ أسرارك فيه؟».

- لا أسرار عندي.

تمنّى لو أنَّها لم تلتفت إليه، لكنه حسم أمره في ألّا يتركها حائرة، وألّا يزيد في إشغال تفكيرها أكثر، سوف يُريحها ويُفهمها أنه لم يحتفظ بهذا الشيء الذي يزيد من ضيق المكان، ويعيق الحركة فيه؛ عبثًا.

قال مسرعًا:

- أحفظ فيه رسائلي.

مشى نحو الصندوق، أقعى على ركبيته، رفع عنه الغطاء.

لم تقدر أن تخبِّئ فضولها، ها هو قطها «مشمش» يتقافز خلف كرة الصوف، يحاول أن يفكّ تشابكها، لقد استطاع ذيب أخيرًا أن يحرَّك فيها الرغبة التي حاولت التملُّص منها، وأن يستلَّ منها ثقتها بأنَّها ليست فضوليّة:

- «رسائل كُتبت لكَ؟» سألته.

لقد كشفت الآن عن نفسها وأعلنت هزيمتها. أوشكت أن تعترف له أنها كانت تكذب عندما أخبرته بأنها ليست فضوليّة، وأنَّ القط «مشمش» أقلّ فضولًا منها.

- نعم، كل هذه رسائل كُتبت لي.

أجابها وهو يرفع بيده حفنة من الظروف البريديّة، فُضَّت كلّها دون أن يتمزَّق فيها شيء. عشرات الظروف المنظَّمة، أُلصقت عليها طوابع، ودُمغت بأختام البريد.

تناول كومة صغيرة منها. ناولها لها، تلقَّفتها بلهفة، قال:

- لا أفترض أني أفشي سرًّا إنْ أطلعتكِ على رسائل أناس لا تعرفينهم.

بدأت بتقليب الظروف على عجل، أخذت تقرأ العناوين المكتوبة عليها، جميعها كانت تحمل عنوانًا واحدًا مكتوبًا بالطريقة والترتيب نفسيهما:

«إلى السيد ذيب شاهين المحترم.

مطعم الريفيرا.

الدوار الثالث. مقابل السفارة البريطانية.

عمّان - الأردن.

(شكرًا لساعي البريد)»

أشارت له برأسها ويديها تطلب الإذن بفتح واحدة منها. بأدب النادل اللبق، قال:

- كلُّها بأمرك.

أخيرًا وجدت ما يشغلها باقي الليلة، وينقذها من الصراع مع أفكار الرجل الفيلسوف، ولربما ما يجعلها تعرفه أكثر. الرسائل المكتوبة له هي التي ستحمل عنها طول الليلة والعتمة، تُنسيها خوفها وتُشبع فضولها، لا بأس فقد صار ذيب أقرب من أن يصبح عاريًا أمامها.

***

رسائل كُتبت كي لا تصِل إلى صاحبها..

رسائل شوق، رسائل عتاب، رسائل حب، رسائل وداع، وإبلاغ عن رحيل بلا عودة، أو رسائل كُتبت في الطريق إلى الانتحار. عبارات مشوّقة، بعضها حزين، والكثير منها خائف.

صارت تتعجَّل في تقليب الأوراق وكأنَّها تسابق الوقت والحرية التي منحها إياها ذيب لاكتشاف عالمه الجديد، كانت تخشى أنْ يعيدَ النَّظر في قراره، ويطلب منها أن تعيدها له، أسطر تتقافز أمام عينيها، تلتقط فكرة، تفوِّتها بفكرة جديدة. من أين جاء بكل هؤلاء الأصدقاء؟

(ذيب العزيز،

لقد تركَتْني، أعادت لي رسائلي، وقصائدي التي كتبتُها فيها. لا يمكن للنَّقاء أنْ يعيشَ في هذا العالم).

(مرحبًا يا صديقي،

أشعر أنّي مُراقَب. أنا لم أفعل شيئًا ضدّ الحكومة، هل يريدون أن يختبروني؟ لمَ لا يسألونني مباشرةً عن ولائي؟ سوف أثبت لهم كم أنا

مخلص ومُوالٍ. سامح الله صديقنا الشيوعي، لقد وضَعَنا كلّنا في دائرة الشكّ).

(عزيزي ذيب،

لم أجرؤ على البوح لها بحبّي. لا أجد مَن أبوح له بمشاعري غيركَ، فأنتَ لا تعرفها، كلّ أصدقائي يعرفون مَن تكون، لا أريد أن يحوِّلوني إلى مَسْخَرَة إنْ هي صدَّتني.. أكتب لكَ لأنّي أشعر بأنَّ لكَ تجارب في العشق. أرجوك ساعدني. ماذا أفعل؟ أفكِّر بالانتحار كثيرًا).

(هيه اسمَع،

أنتَ تغبن زبائنكَ، فستقكَ المالح يزيد عطشنا، تُشعرنا بأنَّ لا شيء يطفئ ظمأنا غير البيرة. أعتقد أنكَ لص).

(السيد مدير الريفيرا

سرَّني التعرُّف عليكَ وعلى بار الريفيرا، عندنا في الكويت الخمرة ممنوعة. أقضي الشهور في الصحراء ظمآن. عندكَ أرتوي. شكرًا يا سيدي).

(هالو ذيب

أنا لستُ مثل ما تتوهَّم بأنّي زير نساء. أحبهنّ صحيح، وأحبّ أن يَراهنّ الناس برفقتي. إحساس جميل، أعتقد أنكَ جرَّبته).

(اليوم ضربتُ مديري في العمل، هشَّمتُ رأسه بمكبس الورق).

(قلّة هنّ النساء اللواتي يتردَّدن على الريفيرا دون رفقة رجل، أعرف ماذا يحكون عنّي، لكن لا أكترث، أرجو أنكَ لستَ مثلهم).

(أنام تعيسًا، وأصحو على الحال نفسها. حياتي تمضي بسهولة، تعبي الوحيد فيها يأتي من معاناتي لكي أنام، ومعاناتي الأكبر لكي أصحو).

(دخلتُ اليوم في حوار عقيم مع أحد المعلمين. أراد أنْ يفرض علينا الصلاة حتى يزيد علاماتنا في المادة التي يدرِّسنا إيّاها، سألتُه ماذا عن غير المسلمين، أو أولئك الذين لا يؤمنون؟ لم يقتنع بأنَّ هناك أناسًا لا يؤمنون).

لو أنَّ وجدان جمعت رسائل عيسى لما ملأت جزءًا صغيرًا من هذا الصندوق. لا تزال تحتفظ بها في العلبة التي اشترتها من سوق «البخاريّة» بعد رسالته الثالثة؛ صندوق مصدَّف جميل، أسكنت فيه بأناقة كلّ رسائله. لكلّ واحدة منها تاريخها، وذكرياتها، وعبقها. لو أنَّ زمانهما امتدّ، لامتلأ صندوقها ولربّما وَجَدَت فيها حضوره، نحَّت رسالته الأخيرة التي لا طابع بريد ولا أختام عليها في مكان بعيد عن يدها. في رسائله الأولى كان خجولًا، متردِّدًا، أحسَّت به وهو يكتب.. كانت ترى خوفه وارتباك أصابعه فوق الورق، وكأنه يخاف أن يتلفَّظ بما يزعجها؛ «لرسائل عيسى طعمٌ شهيٌّ، لكنَّه لم يكُن مشبِعًا».

بقيت لدقائق تلتقط على عجل سطرًا أو سطرين من كل ورقة تكشف عنها، أبعدت بعضها دون أن تفتحها بلا هدف وكأنَّها كانت تلاحق حدسها. حرصت على أن تعيد كل رسالة إلى ظرفها مثلما تناولتها قبل أن تعيدها لصاحبها الذي لم يبدُ عليه أنه يتعجَّلها وهو يراقبها تُقلِّب الصفحات بحماسة.

أعادت له كومة المكاتيب الأولى دون أن تطفئ ظمأها. ما يزال داخل الكرتونة عشرات أو مئات الرسائل، ودَّت لو أنه يعطيها الصندوق بكل ما فيه، ويمهلها لتقرأ كل الكلمات المكتوبة في داخله. سألتهُ أن يرجعا إلى الصالة، لم يمانع، انتصب واقفًا، همَّ بالمسير. استوقفته:

- هل يضايقكَ أن نحملها معنا؟

ردّ:

- أنا مثلك متشوِّقِ لقراءتها من جديد.

رفع الصندوق، لحقَ بها إلى الصالة المضاءة وكأنْ لا حرب في عمّان. عادا إلى طاولتهما التي ما تزال فوقها صحون الطعام وبقايا بيرة ساخنة. وضع الصندوق على طاولة قريبة وبخفّة تناول الصحون والأكواب الوسخة:

- دقائق وأعود إليكِ.

لم تتحرَّك من مقعدها، سحَبَت رسالة جديدة، التقطَت نَفَسًا، وفضَّت الورقة:

(عزيزي ذيب،

سلام سليم أرقّ من النسيم.

ما جعلني أكتب لكَ، هو أنه على كثرة لقاءاتنا، لم تلُح لنا في مرّة الفرصة للكلام. لطالما كانت الشلّة حاضرة، ونكون قد قطعنا شوطًا في السُّكْر، عندما أحضر متأخرًا كعادتي تكون «الريفيرا» مكتظّة. تعرف بأنَّ طبيعة عملي صعبة، أضطرُّ في كثير من الأيام للتأخُّر، حتى إنّي لا أقدر على الحضور في أوقات كثيرة. أعرف بأنكَ كنتَ تلاحظ ذلك.

كل ما في الأمر يا صاحبي، أنَّ عندي رغبة عظيمة في أنْ أبوح لكَ بالأشياء التي تحطّ داخل صدري، ولا أقدر أن أُسرّ بها لأحد، ولا حتى لندمائي الذين أتبادل معهم الأنخاب كل الوقت، وأشاركهم الضحك بصخب وأنتَ قابع في مكانك دون أن تعرف أنت ما هو هذا الشيء الذي يضحكنا. تراكَ تحسدنا على هذه النعمة، نعمة أننا أصدقاء منذ سنين وأننا فرحون دائمًا. لا أعتقد أنكَ تعرف أنَّ ما تراه في كل يوم ليس هو حقيقتنا. في داخل كل واحد منّا حقيقة، أو حقائق أخرى غير ما تعرفه، ولا حتى ما يحكيه لكَ بعضنا إن جاء مبكّرًا ولم يجد مَن يسامره غيرك. نحن لا نعرف ماذا نحب وماذا نكره وما الذي نريده من الحياة.

صديقك المخلص).

أحسَّت بغصَّة في قلبها جعلتها تفكر بأن تتوقَّف عن النَّبش، لكنَّ شيئًا ما جعلها تعدل عن هذه الفكرة. صارت تمنّي نفسها أنْ تلتقط عيناها رسالة تُفرحها، أو تُدهشها، أو تعلّمها شيئًا جديدًا.

أعادت الرسالة الحزينة إلى ظرفها، سحبت واحدة جديدة تحمل اسم ذيب وعنوانه، وطابع بخمسة عشر فلسًا، وختْم البريد، دون اسم المرسل. فضَّتها، حاوَلَت أن تعيد ترتيب فوضاها، أوراق مثنيَّة، أسطرها مكتوبة بأكثر من قلم، فيها دَبَق وكأنَّها شُرِّبت بسائل لزج ثقيل، أصاب أطرافها شحار دخان أسود كأنه ناتج عن رماد سيجارة كادت تحرق بصمة الكاتب.

فكَّرت أنْ تُلقي بها بعيدًا، وأنْ لا تعيدها إلى رفيقاتها عندما انتبهت إلى المقدمة اللاطمة. لم تبدأ الرسالة مثل غيرها بالمنادة على ذيب بالصديق، أو الأخ، أو العزيز، رسالة كان مدخلُها:

(أيها الشيطان المتخفّي بزيّ الرجل).

انحَبَسَت أنفاسها، ابتَلَعَت ريقها، أعادت قراءة الفاتحة الصادمة. فكّرت أن تعيد طيّها وتنسى أمرها، لكنَّ فضولها الذي سيفضي بها إلى هاوية مظلمة جعلها تتأنّى في قراءة كل حرف فيها، أعادت قراءتها لتتحقَّق من أنها لا تصنع هذه الكلمات والأفكار من مخيّلتها السينمائيّة التي أبعدتها عن تفكيرها. عادت تقرأ:

(هيه أنت، أيها الشيطان المتخفّي بزيّ الرجل).

(لـم أكُـن متشـوِّقًا لأنْ أعرفـكَ. أصـحابي الـذين يرتـادون حانتـك يصفونكَ بـالملاك، ولأني لا أصـدِّق بوجـود الملائكـة، ولا أحـبُّ طيبـتهم الخرافيّة، فقد شككتُ بأنّكَ غير ذلك. أصحابي ثلّة من السكارى الجبناء، لا يجرؤون على البوح عن مكنوناتهم، في حانتكَ تنطلق ألسنتهم، يطلقون لمشاعرهم العنان، لذلك تراهم يتقاتلون ثم يعـودون للعنـاق والبكـاء بعـد أن تعمِّر الخمرة رؤوسهم.

لا تفهم أني لا أحتسي الخمر، فأنا أفعل وبكثرة، وعندما أفعل أكون قد أغلقتُ على مشاعري، وحبستُها في داخـل خزنـة لا أملـك مفاتيحهـا، فـلا يقدر أحد على فتحها، ولا حتى أنا. بدافع الفضول قلتُ لأرى حقيقة هـذا المـلاك الـذي هـو أنـت. جئتُ حانتـكَ مـرّات لا أريـدُ شـيئًا غيـر أن أراك، وأعرفك. من نظرتكَ الأولى التي أُلقِيَت عليّ منك، ومـن عبـارة الترحيـب المصطنعة التي خصصتني بها عرفتُ بأنّي أقف بحضـرة شـيلوك الطمّـاع، وليس أمام بارتنـدر بـائس. لقـد زدتني يقينًـا بأنـه لا ملائكـة في الكـون، بـل أوهام يخلقها الضعفاء. أعتقد بأنكَ تعـرف بـأنَّ الشـيطان أيضًـا واحـدٌ مـن الملائكة، أو كان كذلك، وكان من أشرفهم إلى أن عصى أمر السُّجود.

أنا واثق بأنكَ لا تعرف أيضًا إنْ كان للشيطان كتفان مثلمـا لـكَ كتفـان حتى تحمل يُسراهما آثامك. أو أنكَ تشـبهُهُ بالخلقـة، وجهـكَ وتفاصـيله، جسدكَ الرياضيّ، وشهوتكَ للإثم. لكنكَ لستَ منحوتًـا مـن النـار، ولـيس فيك مهابة أسطوريّة، أنتَ بائعٌ أوهمَهُ زبائنهُ بأنَّهُ محترف بعمله.

رفاقي المساكين لا يشبهون الرسامين الذين جسَّدوا الشيطان في رسوماتهم في القرون الوسطى، ملؤوا رؤوسهم بأشكال جميلة للملائكة وألبسوها لِمَن يحبّونهم، وزادوا في تزيينهم أكثر وهم سُكارى؛ لقد ألبسوكَ ثوب ملاك لطيبتهم، وبساطتهم، لأنهم لا يتقنون فنّ الرسم.

لم أحاول أنْ أبحث في الفكرة الأولى لتشكيل الشيطان لأعرف إن كانت مِن صُنع الفنان؟ أم مِن أمر الكنيسة؟ أم من وصف الكتب المقدَّسة له؟ لكنّني أفترض أنَّهُم لم يكونوا معنيّين وقتها مثل رفاقي بالملائكة الطيبة، ما شَغَلَهُم فقط هو الملاك الشرير، الشيطان الذي تشبهه. شكَّلوك من مزيج ألوان مدهش، وضعوا فيك صيرورة النار، وسيرورتها، وتعاموا عن حرائقها وتشوُّهاتها ودخانها.

لقد عرفتك منذ اللحظة الأولى، أنت شيطان مخلوق من نار حارّة، ورجل مشكَّل من تراب بارد، عرفتُ أين يكمن سرّ آثامك، ولِمَ لا تكون آثمًا؟ فأنت المالك، القويّ، المؤثِّر، الفاعل، الموجِّه، المتحكِّم، المستحكم، المتخفّي، الحاضر، القبيح، المجمّل، الضال، المعتدي، الكافر، المحارب، المجالد، والمنتصر، وأنتَ الإنسان الغائب.

ألم تملّ من ظلم الآخرين، وظلم نفسك بعد؟).

وكأنَّ لكمة مقاتل محترف انهالت بحقد على قمّة رأس وجدان، أحسَّت بدوّار أفقدها القدرة على القراءة. التقطت نفسًا عميقًا، أطلقته وكأنها تُخرج من صدرها آثار الصدمة. كوَّمَت الرسالة دون صخب،

أعادتها مكشوفة مبعثرة إلى الصندوق، ودون أن تنظر لترى ما تفعله يداها. أغلقته بحركة واحدة، ونحَّته بعيدًا عنها.

عاد ذيب وهو يمسح الماء عن يديه. أحسَّ بوجومها لحظة أنْ اجتاز القاطع الخشبيّ. تلفَّت من حوله يفتش عمّا يكون قد غيّرها وجعلها شاحبة ومرعوبة.

الحانة ما تزال على حالها مثلما تركها، لا صوت يأتي من الشارع أو الراديو، ولا أثر لحركة ولا حتى لنسمة هواء فالتة من حرّ «حزيران». هي الرسائل إذن التي انتبه إلى أنَّها قد اختفت داخل الصندوق.

ما الذي قرأته وجعلها تنقلب فجأة؟ لقد تركها متحمِّسة وفرحة، ما الذي غيَّرها؟ فجأة تذكَّر الرسالة التي لم يكن من المفترض أن تراها، توسَّل في قرارة نفسه ألّا تكون قد قرأتها:

«أيّ غبيّ أنت! كيف فاتكَ أمرٌ مثل هذا؟».

انتظر أن تتكلّم، أن تصرخ به، أن تلعنه، لكنّها بقيت متصلّبة في مكانها، فكّر أن يعتذَّر لها، وأن يعترف بأنه غبيّ وأنه مريضٌ مثلما تريده أن يكون.

«مَن هذه التي طوَّعتكَ، وأرضختكَ يا غبيّ؟ منذ متى صرتَ ضعيفًا أمام النساء؟ ما العمل الآن؟».

سحَبَ كرسيًّا عن طاولة قريبة. هبط عليه بكلِّه. قرَّر أن يرفع راية الاستسلام. وأن يعترف بأنَّ خطيئته لا تمحوها التوبة. ولا خلاص له غير أن يفترقا بعد هذه الليلة إلى الأبد. ها قد جاءت اللحظة التي لم يكن

ينتظرها، سوف يكشف عن آخر أوراقه، ويتوسَّل إليها أن تمنحه الحقّ في الدفاع عن نفسه.

طال الصمت. لا صوت يأتي من الخارج، ولا طائرات تعبُر بسرعة الصوت. خمد الراديو وكأنَّ رصاصة قتلته، لم يعُد يخرج منه صوتٌ أو حشرجة. لا أحد هناك، لا مذيعين، ولا مغنّين، ولا حتى وشوشة. أمّا فرقة «الحيوانات»، وتوسُّلهم بأن لا يُساء فهمهم فقد نفقوا كلهم.

- «لماذا احتفظتَ بهذه الرسائل؟» سألته بصوت خافت مرتجف، لكنه هدر في رأسه مثل انفجار اختراق حاجز الصوت.
- «لكي أؤنس وحدتي» ردّ بالحال وحرّك يديه مستسلمًا.

انتَظَرَتْ قليلًا قبل أن تعود وتسأله بنبرة صوت عالية:

- كيف احتملتَ هذا الوجع؟
- ليس وجعًا.
- كيف وقد أوجعَتْني أنا الغريبة عنها. لماذا لم تحرقها؟
- لم يأتِ أوانها بعد.
- تحبُّ أنْ تعذِّب نفسك؟

الحوار تنازُل. ما شَحَنَها ضدّه، وما جعل وجهها يحتقن ويصبح أسود، سيغادرها مع الكلام. لم يكن يطمع بأن تغفر له، لكنه صار ممتنًّا لأنَّها جعلته يلتقط أنفاسه. ليس سهلًا على الرجل أن يستجمع معايشته الطويلة لنفسه منذ بداية وعيه ليسردها بكلمات تُقال في حوار واحد.

الشيء الوحيد الذي تمنّاه هو أن تسمح له بالكلام، وأن تَسمَعه حتى لو ظل يحكي لساعات. هو لا يريد مغفرة لذنب يعرف مدى فداحته. ولا أن تبرئه من الجنون، فهو لم يكن مجنونًا عندما احتفظ بالرسائل، ولا عندما أدخلها إلى عالمه؛ بل عندما وضعها بين يديها بسذاجة، هذه السذاجة التي كان يدّعي أنها ليست فيه. السذاجة التي نجح في إخفائها عن الآخرين لعقودٍ طويلة، وأوهمهم وأوهم نفسه بأنها ليست واحدة من صفاته؛ ها هو يُشهر إعلانًا عريضًا بأنه الرجل الأكثر سذاجة في عمان 67.

من أين يبدأ؟ الاعترافات الصادمة لا يُفترض بها أن تُهدَر بأولى الكلمات. يلزم أن تصير مثل حجارة النَّرد، تتراقص في بطن الكفّ دون أن يبدو منها شيء غير قرقعة الارتطام، قبل أن يُلقى بها على الأرض، ليُكشف الرقم المختبئ فيها ما إن تفارقها الحركة وتخمد.

إذن ليكن مثل حجر النَّرد، وليعُد بها إلى البداية، أو قبلها بكثير. هي مَن أرادت وعليها أن تحتمل وزر إرادتها:

- ليست المعضلة في هذه الرسائل، ولا في ما يجعلني متعلّقًا بها، بل في لماذا أنا وليس غيري مَن يعيش هذه التجربة؟

تنبَّهَت على صوته الذي انقضَّ عليها فجأة.

أكمل وهو ينتقي كلماته بحرص:

- علاقتي مع الأحلام ليست طيِّبة لأنّي أعرف نفسي. أنا رجل عاجز عن اجتياز الطريق المفضية إلى تحقيق الذات التي أريد، توقفتُ

عن الحلم منذ زمن بعيد. تخلّى الحلم عنّي مثلما تخلّيتُ أنا عنه. حاولتُ أن أبحث عن بَشَر تحقَّقت أحلامهم وفهمتُ أنها عصيّة على التحقَّق، تساءلتُ كم من الأحلام ماتت لأنَّ أصحابها لم تأتِهِم الفرصة لتحقيقها؟ صرتُ أفهم أنَّ الحلم يتحقَّق ليس لأنَّه حلمٌ، بل لأنه إرادة الحالم، أمّا تلك الخيالات المستحيلة التي تضللنا ونجمِّلها، فلا تعدو شيئًا سوى الوهم.

تعلَّمتُ ذلك من زبائني في بيروت وهنا. لا تكتمل نشوة شارب الخمر بما يشربه، بل بما يرسمه في رأسه من عوالم يجمِّلها له الخمر. كلّ السكارى الذين عرفتهم مسالمون وطيبون. أنا إنسان مسالم وطيِّب لكنَّني لا أجمِّل عالمي إنْ شربت، أظلّ متنبِّهًا وكأنّي في معركة مع ما أسكبه في داخلي. تكشَّفَت لي هذه الحقيقة منذ بدأتُ العمل عند جوزيت، ليس من عملي ساقيًا بل منظِّفًا. كان من السهل عليّ مراقبة الزبائن، والتعرُّف على سلوكيّاتهم التي تعبُر مراحل من الرَّشفة الأولى حتى آخر جرعة يكرعونها. أصبحتُ مأزومًا، وصرتُ أسأل، لماذا أنا هو أنا، ولستُ واحدًا آخر؟ لماذا أنا الرجل الذي ينظّف الحمّامات، ويمسح الصالة، ويشتري حاجات البار ولستُ الزبون الذي يُستقبَل بحفاوة، ويقدَّم له ما يطلبه؟

في كل يوم كنتُ أواجَه بالسؤال نفسه الذي أخذ يتضخَّم في رأسي حتى صار شغل عقلي الشاغل. عندما أستمع لنشرة الأخبار في الراديو أسأل لمَ لستُ أنا الزعيم الذي يُستقبَل من الناس وكأنه مخلوق قادم من عالم آخر؟ في الشارع أفكِّر لمَ لا أكون عامل النظافة الذي يكنس الطُّرُق النظيفة بتكاسُل ويتجاوز البقع الوسخة فيها؟ حتى إنَّني تساءلتُ لمَ لا أكون جوزيت العجوز؟ أو أكون وجدان هذه التي تجلس أمامي الآن وتسمعني؟ أو ذاك القط الذي هرسَتْه عجلات سيارة مسرعة؟ أو الكلب الذي تنزِّهه صاحبته قبل المغرب ليقضي حاجته بالبدائيّة نفسه التي توارثها عن أجداده، ولم يعتَد على فعلها في القصر الذي يسكن فيه.

عرفتُ متأخِّرًا كثيرًا أنّي أنبش في المستحيل، وأنّي أهوي إلى الجنون، فقرَّرتُ أن أرضى بهذا الأنا الجالس الآن أمامكِ الذي دفعتِه، أو دفعه غباؤه، لأن يتعرّى أمامكِ عندما أطلعكِ على رسائله وهو لم يعرفكِ بعد.

تنبَّهَت حواس وجدان. نسيَت كل ما كانت تفكر به وهي تسمع كلماته المثقلة بالحزن وتشبه الهذيان. عدَّلت جلستها، أعادت لظهرها انتصابه على مسند الكرسي، أطفأت السيجارة التي بالكاد أُشعلت، وصارت تستمع إليه وهي تتساءل: «أيّ ألم هذا الذي يقبع وراء كلماته؟». لم تفكِّر

في أن تقاطعه. بعثت له بحركاتها الإشارة بأن يكمل. صارت تتابع شفتيه اللتين بدتا وكأنهما عتبة تُفضي إلى روحه:

- اهتديتُ إلى إجابة قد تبدو أكثر جنونًا؛ لقد أقنعتُ نفسي بأنَّ هناك خيطًا يربطني بكل هؤلاء الآخرين، وبكل آخر حيّ على الأرض وإنْ لم أعرفه، أو أسمع باسمِه. كما أنَّني وجدتُ حيواتي الخاصّة مربوطة بالخيط ذاته. لا أحب أن أصير أكثر غموضًا، لكنَّني سأجيبكِ عن سؤال لم أجبك عليه اليوم. تريدين أن تعرفي ما قصدتُ بعمري الأوَّل والثاني والثالث؟ سأقولُ لكِ.

كان ذيب وكأنه يكلِّم نفسه، وكأنْ لا أحد معه، لم يبدُر عن وجدان أيّ حركة أو كلمة. اختفى الوجوم عن ملامحها وعاد الدم ينساب فيها من جديد. فكَّر وهو ينظر في وجهها أنَّ «العري يبدأ من الوجه». تحمَّس للكلام، لقد استطاع أن يحيِّدها ويخفِّف من الحدّة التي رآها عليها عندما عاد ليجدها وقد أعادت رسائله:

- فكَّرتُ بأن أعاين عمري بطريقة لا تشبه البشر، قررت أنَّ الولد الصغير قليل الكلام الذي كنتُه هو شخص آخر غيري. كان أنا في وقتٍ ما، لكنه لم يعُد كذلك، اختفى إلى الأبد واختفى معه عمري الأول. الصبيّ والشاب الذي عمل قهوجي على جسر «رغدان» غاب هو الآخر عندما سافرتُ إلى بيروت، فتركتُ عمري الثاني هنا في عمّان. أما عمري الثالث فقد ابتدأ عند جوزيت، صرتُ

واحدًا جديدًا أحببتُ حضوره وتمنَّيتُ أن أظلَّ فيه، لكن ولأني أحمق، تخليتُ عنه برضاي.

عدتُ إلى عمّان، وهنا ابتدأ مأزقي. رحلة السيارة إلى عمّان كانت قصيرة ومسلِّية. استرخيتُ فيها طوال الطريق على الرغم من هزهزات السيارة، فقد كانت أنيسة، مهدهدة، لم يكن يشغلني شيء، ولا يحزنني سوى فراقي عن جوزيت. قلتُ لنفسي لأجرِّب أن أحلم مثلما يفعل الناس؛ مهنة جيدة، دخل يكفيني لعمل بيت وأسرة، وغير ذلك عودة إلى بلدي. لم أفكر بما هو أهم؛ الرحلة إلى «أناي» الجديدة. لم أنجح بالبقاء في ذلك العمر الذي كان عند جوزيت، وعجزتُ عن العبور إلى هذا الذي في عمّان. حاولتُ أن أقنع نفسي بأنه يوجد في الحياة شيء اسمه الامتداد، لكنَّني فشلت، لا امتداد لما انقضى سوى بالفكرة، والفكرة ليست سوى الوهم، والوهم المتشكِّل من تراكم الذكريات المتخفِّية، والمُعلنة لا يعدو أن يكون سوى خرافة.

كفَّ عن الكلام برهة. وقف على قدميه، مشى بضع خطوات وكأنه يعيد لجسده دورته الدمويّة، قبل أن يعاود الجلوس مجددًا، قال محاولًا التقاط أنفاسه:

- قد تسألين لماذا لم أرجع إلى بيروت؟

لم يتحرك فيها شيء، لم تسأله، بقيت منصتة ترغب في سماع المزيد ممّا كانت تفكر بأنه الهذيان الذي يُذهب العقل. أكمل دون أن ينتظر جوابًا:

- تخيَّلتُ بأنّي سوف أنتصر على الحياة وأن ألجم سطوتها عليّ. جرَّبتُ أن أكون مثل الآخرين. أُعِدُّ نفسي للشيخوخة، إن حدث ووقعت معجزة وبلغتُها. فكّرتُ بأنها فرصة ثمينة رَكَضَت إليّ دون أن أطلبها، فلِمَ لا أخوض التجربة؟ فقد صرتُ أكثر معرفة وفهمًا للحياة، وقادرًا على مهادنة العمر.

سكَتَ، عدَّلَ جلسته، أشعلَ سيجارة جديدة:

- للأسف لم تفلح محاولتي، فشلتُ بسهولة أمام أوَّل مواجهة مع أخي الكبير. سلّمتُ لقرار نبذي وعزْلي عنه وعن أولاده. لم يتبقَّ لي شيء هُنا غير هُنا. تجرّأتُ واستشرتُ طبيبًا نفسيًّا. لقد أخبرتكِ بأنّي صرتُ أكثر وعيًا. سمعتُ عن طبيب، طيِّب، يتقن فنّ الاستماع. مثلكِ الآن. داومتُ لشهور على زيارة عيادته الأنيقة في جبل «اللويبدة» على دوّار «الحاووز».

استقبلني من المرّة الأولى بمودّة، أسمعتُه كل الذي أسمعتُكِ إيّاه الآن وأكثر. لم يُفاجأ مثلكِ، ولم تصدمه حيواتي الثلاث التي وأدتُها. على العكس كان مرتاحًا، ومبتسمًا، وظلَّ يطلب منيّ أن أحكي أكثر. بعد عدد من الجلسات التي كنتُ أحضرها سرًّا،

حاول أن يُفهمني بأنّي مخلوقٌ طبيعيٌّ وسويّ، وبأنّي لا أختلف عن باقي البشر. كان كأنّه متأكدٌ من أنَّ مشكلتي سببها أمر بسيط تافه؛ الوحدة. أراد إقناعي بأنَّ وحدتي هي التي جعلتني أعيش هذه التهيُّؤات، وأظلّ واقفًا في هذه المحطة لا أبارحها. جرَّب أن يمتدحني وأن يحاول إقناعي بأنّي أفضل حالًا من كثيرين غيري يشبهونني، لأنّي ملكتُ الجرأة على استشارتِه.

بعد أسابيع من الكلام، وكتابته الملاحظات على دفتره المرتَّب بقلم «باركر» ريشته من الذَّهب، أغلق الدفتر. أعاد القلم إلى غطائه. رمقني بعينيه الواسعتين من خلف نظّارته. ابتسم ملء فمه، وقال بثقة:

- أنتَ لستَ مريضًا بعد.

ضحكتُ لتشخيصه الغريب. سألتُه بسخرية:

- هل عندي أمل أنْ أمرض يا دكتور؟

خرجَت من فمه قهقهة طويلة فاجأتني وهزَّت العيادة، لم أتخيَّل أنَّ هذا الكائن الهادئ الخجول يملك حنجرة تقدر على إصدار مثل هذا الصوت الضاجّ بالصّخب. تحرّك عن كرسيه وانتصب واقفًا، قال وهو ما يزال يضحك:

- هي كذلك. ما زلتَ في بدايات المرض.

ثم بذوق المُشفق، شرح لي عن تفاصيل مرضي. قال إنَّ كل مَن يصيبهم الاكتئاب يعبرون في هذه المرحلة، إنه عارِضٌ لا بدّ أن يعايشه المريض، وغير المريض. شرح لي أنّ معنى الاكتئاب شعبيًّا؛ القلق. وبطريقة عجيبة وكأنَّهُ كان يريد تسويق هذا المرض ويبيعني إيّاه، أفهَمَني بأنَّ القلق حالة ملازمة للبشر في كل ما يفعلونه، وأنَّهُ لولاه ما أنجز الإنسان شيئًا في حياته.

فهمتُ بالطبع ما يقصده وصادقتُ عليه. إلى أن تلاشت ضحكته نهائيًّا، وعادت له تعابيره الجادّة. قال لي: «مع أن هذه التي يمكن أن ننسبها للقلق فضيلة، إلّا أنها أيضًا مقدمة لما قبل الانتكاس، إنْ لم يُتدارك الأمر».

حاول مرارًا أن يجعلني أصدِّق بأنَّ هذا الذي أعاني منه منذ عقود ليس سوى بذرة صغيرة من كمّ الأعراض الكثيرة التي يعاني منها المكتئب الموغل بالمرض. لم أصدِّقه. امتنعتُ عن حضور جلسات العلاج، ولم أداوم على اجتراع الأدوية التي وصفها لي.

قطع ذيب حديثه ليسأل وجدان من جديد:

- هل أُكمل؟
- «أكمل» ردَّت بالحال.

- خضتُ بعدها تجربة جديدة، صرتُ أعايش حالة نفسيّة كانت مقدِّماتها سهلة ومسلِّية، لكنَّها لم تظلّ كذلك. عوضًا عن رسْم حدود لعمري الماضي، خضتُ في مهمّة البحث عن ملامح عمري القادم. لم أكُن قادرًا على تخيُّل شكل حياتي الآتية، وما هو مفترض بي أن أفعله لأعيشها مثلما يعيش الناس حياتهم. حاولتُ أن أقتنع بإيمانيات الآخرين وفهمهم مهما كانوا مختلفين عنيّ. قاتلتُ لكي أبني جسرًا بين نفسي وبيني؛ لكنَّني فشلت.

كان قد انقضى على وجودي في عمّان ما يزيد على السنة والنصف دون أن أقدر، لا أنا ولا الطبيب طويل البال، ولا الأدوية المهدِّئة غالية الثمن التي وصفها لي، على تقبُّل الإنسان الذي صرتُه. رضيتُ بالطالب الذي يتعلَّم في القرية، وليس الفلّاح. قبلتُ الشاب الذي جاء إلى عمّان مع أسرته بسعادة المكتشفين، أحببتُ الرجل الذي عند جوزيت واحتفلتُ به، صرت مغمورًا بالحياة، ونسيتُ السابقين. في كلّ مرحلة لم أكُن أرفُض الجديدَ الآخر الذي سأكونه، كنتُ أغادر بلا ندم أو أسف، وأعبُر في ذاتي المستحدثة دون أن أخشى ملاقاتها؛ بل كنتُ أهرع صوبَها بكلِّ طاقتي. إلى أنْ حطَّت عليّ الانتكاسة الكبيرة التي أخلَّت بتوازني، وأفقدَتْني الإدراك؛ لم أقبَل «ذيب الريفيرا» فقط، بل مقتُّه، كرهتُ تفاصيله، وعلاقاته، وحتى شكله. لم أطِق التعامل مع أخي الذي وجدتُهُ ما

يـزال يـراوح في مكانـه. ابتعـدتُ عـن الأصـدقاء الـذين يملـؤون حيـواتهم بالعبـث مـن يـوم أنْ عـرفتهم وعشـتُ معهـم في شـارع «المحطة» بين الكراجات، وعـدتُ لأجـدهم مـا يزالـون محـافظين علـى مسـاوئ سـلوك المراهـق بـرغم تقـدمهم بالسـن. لـم أسـتطع الاقتراب من زبائن «الريفيـرا»، ولـم أحـبّ عملـي فيـه، والأصـعب أنَّني لم أجد راحتي في النوم الذي كان يتحكَّم بـي بسـاديّة، ويحـرِّم الراحة على بدني بالأرق. حاولتُ تجاوُز كل ذلك، جرَّبتُ أنْ أقنـع نفسي بأنَّ كل ما أفكر فيه ليس سوى وسواس وهميّ لا وجـود لـه، وبأنّي لستُ مريضًا يجب أن يعتاش على المهدِّئات.

فشلتُ في الدُّخول إلى عمري الرابع، وبقيتُ مُتلبسًا بـذيب الثالث؛ «ذيـب جوزيـت» ولـم أقـدر علـى اسـتقراء كنـه ولا جوانيّـة «ذيـب عمّان»، كلّما رسمتُ له صورة في مخيّلتي، مججْتُها، وبصقتُها مثل الدَّواء المرّ، وإنْ حاولتُ أن أتحامل على نفسي وأجرِّب الاقتراب منه، كان يصدّني.

فشلتُ في تطويع هذا الأخير الذي يجلس أمامكِ، أو في إبعادِه عـن حياتي. إلى أنْ اهتديتُ إلـى هـذه الرسـائل التي بـين يـديكِ، والتـي قدَّمتُها لكِ بسذاجة لتقرئيها. وجعلتكِ تنظرين إليّ بنظـرة الاتِّهـام هذه التي أراهـا علـى كـلّ شـيء فيـكِ. في هـذه الرسـائل يـا عزيـزتي استطعتُ أنْ أُجهزَ على ذيب القديم، وأتعايش مع هذا الجديد.

قاطَعَتْهُ محتدَّةً بصوتٍ موجوع:

- أشفقتُ عليك. كل ما في الأمر أنَّني لم أقدر على تحمُّل فكرة أنْ يحتفظ إنسانٌ برسالة تصفهُ بأنَّهُ شيطان. كلّ ما حكيته ليس مبرِّرًا لمعايشة هكذا تجربة. سمعتكَ حتى النهاية لأجدَ لكَ عذرًا. لكنَّني ما زلتُ متعجِّبة. هذه الرسالة وغيرها الكثير مصيرها الحرْق منذ السَّطر الأوَّل، لا أنْ يُحتَفَظ بها بكل هذه العناية. فكَّرتُ أن أمزِّقها لشدّة قبحها، لكنّني لم أعطِ لنفسي هذا الحقّ.

أخرج ذيب نَفَسًا مُلتهبًا أحسَّ بأنَّهُ قد ألهب به وجه وجدان الجالسة بعيدًا عنه، والتي أكمَلَت باندفاع:

- يُفترض أن تحتفظ برسائل الأصدقاء الطيبين الذين يحبّونك، وتُلقي برسائل الذين يكرهونك في النار.

صفعته عباراتها الأخيرة بسؤال رهيب: «أين كنتَ ستغدو أيُّها الغبيّ، لو أنَّكَ تسرَّعتَ وأفصحتَ أكثر، أو لو أنها قرأت كل الرسائل؟».

لم تلتقط وجدان عبق الرّاحة الذي انتثر عن وجه صاحبها. تخلَّت عنه الرَّجفة، تلاشت تأتآته، واستعاد صفاءه. صار يتكلَّم بسرعة ورقة وكأنَّهُ يطارد أفكارًا حلوة لا يريد لها أن تفلت منه.

لقد كشفت هذه المرأة اليوم عن عقم تفكيره وفشله في فهم نفسه والآخرين، ما كان يحسب أنَّهُ الحقيقة، وما تحكَّم بعمره، وجعله يرتقي في نفسه إلى حدّ القداسةً، ها هو يتعرّى ويُفضح ليظهَر على حقيقته

الهزيلة، الخائبة، والعدميّة. لو أنَّهُ حكَّم عقله وفهم منذ البدايات أنه قد هُزم؛ لَما انتظر طوال عمره ليعرفَ أنَّ هذه الليلة قد عرَّته واستَلَبَت منهُ كلّ شيء. لقد كان واهمًا، مثلما يدعي، فلا خلاص بالطبيب النفسيّ، ولا بأعماره المزعومة، ولا بعزلته التي لم تكُن سوى ضربٍ من العبث.

أعاد للسانه الروح ولكلماته البعث، قال بصوت هادئ ناعم:

- أحبُّ حياتي بكل ما فيها، على الرّغم من أنّي نادم عليها. ما بين هذا الحبّ والندم تقبع مأساتي. حياتي لم تكن سيِّئة، لكنَّها خذلتني. الرسائل هذه هي اللجام الذي أقبض فيه على عنقها. يدهشني أنَّهُ لم تستوقفكِ الرسائل الحلوة، وصدمتكِ القبيحة. هلا فكرتِ أن تَرَيْها مثل ما أراها؛ حلوها ومرّها واحد؟ تنساب من النبع نفسه، وأنا مصبّه، لقد أعطيتُ نفسي الحقّ في أن أرى الأشياء مثلما أحبّ لكي أقهر الخضوع الذي حدثتكِ عنه، هذا القبيح الذي يلحّ على العمر ويستنزفه ويمنع عنه الفرح، هو الجميل أيضًا. أنا مخلوق مثل باقي البشر، سلمت نفسي للوهم مثلما يفعل القبيح الذي يحب شكله.

لقد رفضتُ الخضوع مبكرًا جدًّا ودون وعي منيّ، وقبل أن أعرف ماذا يعني، تمرَّدتُ على قانون أبي الذي كان سيجعلني فلاحًا أميًّا في القرية وعامل بناء في المدينة، كسرتُ استلابي من عامل المقهى الجاهل في شارع «المحطة». عندما سافرتُ إلى بيروت، صرتُ

أنظر للحياة على أنها ليست سوى مراحل متسلسلة من الخضوع؛ خضوع للبيت والأهل، خضوع للمدرسة، خضوع للموروث والعادات، وخضوع للفقر والمرض، وفي النهاية، خضوع للموت.

«أواه يا عيسى العزيز، لقد خضعتَ للموت، وخلَّيتني أخضع لخيبات الحياة وحيدة»، تمتَمَت بصوت مخنوق.

«اسكت أرجوك» قالت بتوسُّل.

لم يكترث لرجائها، أكمل وقد صار يحسُّ براحة تشبه تلك التي كان يشعر بها كلّما تمدَّد على أريكة معالجه النفسيّ:

- الخيبة الأكبر ليست في هذا؛ بل في أنَّ كلّ ما نخضع له هو ما لا نملكه، وما لا نفهمه، وما لا نحبّه.

«كفى» صرخَت به وأجهشَت بالبكاء.

ألَجَمَتْه دموعها، لم يعُد يتذكَّر ما حضره من أفكار جديدة كان قد قرَّر أن يطيح بها تحت قدميّ وجدان. صار يبحث عن موضوع يُخرجها ممّا صارت عليه. لم يجد سوى الصَّمت الذي عاد من جديد ليحتلَّ «الريفيرا» التي كانت قبل دقائق متَّقدة بصخب أصواتهما ومشاعرهما.

طال سكوتهما، مسحت بمنديلها أنفها وعينيها، بقي متربِّصًا ينتظر الكلمة التي تأخَّرت طويلًا قبل أن تغادر فمها:

- آسفة.

«هل أكمل؟» عاد يكرر سؤاله الذي أوشك أن يصبح لازمة.

- ما يزال عندك المزيد؟
- أريد أن أقول إنّي لم أشعر بمثل هذه الراحة منذ سنين. أنا لا أقدر أن أكون مثلكِ أو مثل غيرك لأنَّ كل شيء فيّ سيتكسّر.
- ما الذي لم تقُله بعد؟
- شيء لربَّما استطعتُ أن أخفِّف عنكِ الثقل الذي وضعتكِ فيه دون أن أقصد، كل ما أخبرتكِ به وجعلكِ تشفقين على حالي قد لا يكون سوى هذيان أو تخريف، وإن أطلتُ لن أضيفَ جديدًا. يتملّكني بعض الأحيان شك بأنّ الحقيقة ليست في ما نقوله، أو ما نفكِّر فيه، بل في شيء آخر لا أعرف ما يكون. اخترعنا مفهوم الحقيقة لنطيل بقاء الأشياء التي لا تمكث طويلًا فينا، كلّما اهتدينا إلى ما يريحنا في الفهم نكتشف بعدها أنه وهم. لا أدري إن كان هذا العالم الذي نعيش فيه مكانًا صالحًا للحياة.

سكت برهة طويلة. لم تستحثّه وجدان على الكلام. فكرت بأنه يحتاج فسحة من الوقت ليعود إليها وإلى «الريفيرا» وليلتقط أنفاسه. أحرق سيجارة كاملة في رئتيه قبل أن يكمل:

- لا شيء يتغيّر في حياتنا. نجهد عقولنا لنغيِّر صورة العالم حتى لا يقتلنا الملل. نصنع التغيير في رؤوسنا حتى نقتنع بأنَّ مجيئنا إلى الحياة ليس عبثًا، لا يوجد أحد يحبُّ الحرب، لكنَّنا نفتعلها،

ونصدِّق بأنها خيار صحيح، نعمل، نحبّ، نتزوّج، نتكاثر حتى نظلّ مقتنعين بجدوى وجودنا.

أحنى رأسه صوب الأرض. انبَعَث من كتلته المتكوِّمة على الكرسي صوت مبحوح متحشرج يقول:

- الجرح الذي لا يلتئم في أعمارنا، ويأبى أن يفارقنا طوال حياتنا، هو أننا لا نعرف شيئًا عن الحقيقة.
- أريدكَ أنْ تسكت وتُسمعني أيّ أغنية حتى لو كانت «دعاء الشرق».

لن تعرف وجدان إلّا بعد سنين، بأنَّ عالمها قد انهار وبُني من جديد في هذه الليلة دون أن تنتبه لذلك.

صفَّق يديه بفرح وكأنَّهُ لم يكن يعيش من دقائق فصلًا في مأساة تراجيديّة مُحزنة، وأشرك فيها إنسانًا بريئًا كان يَفترض أنَّ في العمر بقيّة، يجب أن تكون جميلة.

انتَصَبَ واقفًا بخيلاء، رفَعَ ذراعيه بالهواء وكأنَّهُ يرقص أو يطير، تقدَّم منها، مدَّ يده تملس على شعرها بجرأة، لم تردعها، بعد أن حرّكت فيها شعورًا مثيرًا. أعاد فتح صندوق الرسائل، صار يعبث في داخله. نحّى عددًا منها بعيدًا، عاد ودَفَع الصندوق نحوها:

- لا مزيد من الأغاني. لم يعُد هنا ما يعكِّر صفوكِ الآن. أبقيتُ لكِ الرسائل الحلوة.
- «لا أريد أن أقرأ» قالت بدلال.

- يجب أن تقرئي. لا بدّ أن تعيدي للَّيلة نرجسها.

بعد إلحاح دسَّت يدها داخل الصندوق بتردُّد. بدأت تقلِّب الظروف بأطراف أصابعها غير آبهة بالفوضى التي حطّتها فيها، تناولت واحدة ملمسها ناعم. رفَعَتها، قلَّبَتها بين يديها. فضَّتها من جديد.

رسالة مكتوبة على ورقة واحدة رقيقة وكأنَّها لم تُخدش بالحبر، ولم تملأها الكلمات، بدت فارغة إلّا من لون شفيف:

« صديقي العزيز ذيب،

أريد أن أخبركَ عن الصبيّة الحلوة التي رأيتها اليوم معي.

هي زميلتي في العمل، تعذَّبتُ كثيرًا وأنا أحاول إقناعها بقبول دعوتي لفنجان قهوة. لا بدَّ أنكَ لاحظتَ تشتُّتي وانشغالي، حتى إنّي لا أتذكَّر إنْ كنتُ قد سلَّمتُ عليك. أعرف بأنكَ ستعذرني.

لقد تهيَّأ لي، وبضربة عاطفيّة واحدة، عندما قبلَت أن تخرج معي، أنّي أغرق في بحر من الدموع، لربَّما كنتُ مضطربًا ومشتَّتًا، ولم أتعامل معكَ بلطف، لم أحبّ ذلك فيّ، لأنّي عندما استرجعتُ ما حدث معي تذكّرتُ أني كنتُ مثل زبون غريب.

لم أقصد شيئًا سيِّئًا، فقد كنتُ مبعثرًا.

أرجوك أن تسامحني.

محبَّتي.

صديقكَ المخلص».

تفتَّق فم وجدان عن ابتسامة عريضة، وهي تعيد الرسالة بهدوء إلى رحمها:

- «يبدو أنَّكَ محقّ» قالت وهي تدفع بيدها إلى داخل الصندوق، وقد عادت لها حيويّتها: «سوف أُكمل. سأثق بملمسي، لن أختار بعينيّ، بل بأصابعي».

«لتقرأ الآن ما تشاء»، قرَّر وهو يسحب الرَّشفة الأخيرة من كأسه.

انهَمَكَت نبشًا في الأوراق. مضى صوب البار. عاد يحمل كأسين مترعتين. جلس قبالتها وأخذ يراقب ملامحها التي كانت تتقافز متلوِّنة فوق وجهها مع كل رسالة تقرؤها. على عجل بدأت تتصفَّح بعض الأوراق، تتجاوز المقدمات، تبحث عن عبارة تستوقفها:

«أريد أن أغمركَ يا حبيبي الرقيق في قلبي وبكل قواي الطريّة».

«لا بدَّ أنكَ تعرف لماذا أكتب لكَ وأتركُ جانبًا بعض الهوامش، لا أحبُّ أن أكتب لكَ كصديق. بل كإنسان».

«أحبكَ دائمًا كما أحببتكَ أوّل مرّة، ومع أوّل قبلة».

«أعرف أنكَ عشتَ أيامًا صعبة، وكنتَ تحسّ بثقل ما يتراكم فيكَ من بقايا عصيّة على النسيان، يجب أن تعرف أنَّ كل ذلك هوامش مزويّة منسيّة في صفحة حياتك. إنَّ الجروح والكسور التي أصابتكَ لا تخصّكَ، فلا تتطلّع إليها بالنظرة ذاتها التي تراها فيها. هي جروح شخصٍ ما، لا تعرفه».

«عندي قلق منّي ومن هذا العالم، خوف عميق، هذا العالم الذي أرغب فيه من كل قلبي، أخاف منه من كل قلبي، لقد دفعتَ الثمن دون شكّ. ابحث الآن عن حريّتكَ وحقكَ بالحياة في هذا العالم الغامض».

«هل جرَّبتَ التمرُّد على ذاتكَ، وعلى الحياة نفسها؟».

«أعرف بثقة ودون أنْ تبوح لي بأنكَ إنسانٌ ممزَّق. تعيش عزلة قاتلة في مهجعكَ الضيِّق مثل زنزانة، وحيدًا تسند ظهرك إلى الحائط، كل ليلة تفكر بالناس الذين مرَّوا عليكَ اليوم. تفتِّش عن حزنهم. تفتِّش عن مبرِّر لحزنك. ليتَ بمقدوري أنْ أساعدك».

«العالم يا صديقي أبشع مِن أنْ يُعاش به».

ظلت وجدان مرتاحة وهي تتناقل الرسائل بين كفيها وعينيها. قبل أن تعلن عن اكتفائها استوقفتها رسالة أخيرة:

«إليكَ يا حبيبي الذي ينأى بعيدًا عنيّ...

لتعرف بأنَّ كرنفالًا وحشيًّا يصطخب في داخلي. قبائل بربريّة تحوم بالرقص حول قلبي المشتعل، وأنا محاصَرة في كوْن من نار ودخان وأصوات همجيّة تصلّي شكرًا للّذي وهَبَ لها الطعام والحياة. أنا طعامهم، وفيَّ حياتهم. أيّ معجزة تلك التي ستنجّيني أنا الفريسة السّهلة النَّوال؟

ينازعني عناءٌ عظيمٌ كلَّما فكَّرتُ في أنْ أكتب لكَ. لا لأعلن عن خلود علاقتنا، بل لأخطَّ نهايتها. ليس بالأمر السهل أن يكون المُحب هو مَن يشهر إعلان الهجر عن حبيبه. هو لا يفعل إلّا عندما لا يهتدي لوسيلة تنجّيه من آلامه. أشعر أني عاجزةٌ عن تبديل هذا الحكم. ليس في الأرض مَن هو قادر على أن يعينني عليك، غيرك. لن يخفِّف ألمي أحدٌ سواك.

أعرف بأنَّ هذا يحزنكَ، وأشعر منذ بدأت التفكير في الهجر بالحزن. أرى حزننا شيئًا أزليًّا لن تُنسيني إياه الأيام، ولا حتى الفراق. فلنجعل من حزننا قوت رحلاتنا القادمة. رحلتكَ التي شلَّها الثبات، ورحلة حياتي التي يزلزلها التحوُّل.

هل ما زلتُ مخلصة بعد هذا القرار؟

محبَّتي».

أوشَكَت الليلة على الانقضاء وما تزال تخبِّئ في جعبتها المزيد، ما يزال صاحبها لغزًا، حلُّه أضحى لعبة مسلّية الآن؛ لكنها تخيف أحيانًا. لتكتفِ بما قرأته، وبمَن عرفتهم من أصحابه الذين لم يجرؤوا على مواجهته، واكتفوا بالرسائل.

***

«اطفي الضو»!

انفجر الصوت من عالم الغيب، صوت مكابح سيارة كانت مسرعة انبَعَثَ من مكان قريب، وكأنَّها توقَّفت فوق الطاولة المجاورة لطاولتهما. لحظة قصيرة متلاشية انقضت لتنهال بعدها طرْقاتٌ عصبيّةٌ على باب

الزجاج الذي اهتزَّ بقوّة واندفع إلى الداخل، تبعه رجل شرطة تكاد شرايين وجهه المحمرّ تنفجر:

«أنتَ هيه، يا «ريفيرا» ألم تسمع أنَّنا في حالة حرب؟ هل أنتَ سكران؟»، صرخ الشرطي بغضب وهو يتلفَّت في أرجاء المكان يبحث عن الآثم الذي ترك ضوء المحلّ مشتعلًا.

انتفض ذيب واقفًا مصدومًا، مرتعبًا. لم يجد ما يبرِّر به فعلته الشَّنيعة:

- سوف أطفئه.

عاد الشرطي يصرخ وكأنه لم يسمع أو يَرَى ذيب وهو يسرع لتنفيذ الأمر:

- اطفي الضو.

هرع ذيب نحو قابس الكهرباء الرَّئيس. سحبه بقوة إلى الأسفل، عمَّت ظلمة تشبه العمى. اختفت الأضواء كلها حتى تلك الصغيرة التي لا مهمّة لها سوى الإبلاغ عن أنَّ الثلاجة، وآلة التسجيل، ومضخّة البيرة، فيها حياة. سكن الكون من حولهم. حتى إنَّ الشرطي الذي لم يعُد قادرًا على تمييز مكانه في الحانة توقَّف عن الصراخ. لم يعُد يرى أحدًا، أو يسمع صوتًا، صار يتلمَّس الهواء بيديه المندفعتين أمامه بحثًا عن طريقٍ للخروج، اهتدى أخيرًا للباب، اتَّكأ عليه وصار يدفعه، صنع مساحة تكفي لعبور جسده المتكور وانصرف.

سمعا صوت بسطاره الثقيل وهو يبتعد مرتبكًا. بقيا على حالهما إلى أن سمعا طرْق باب السيارة، وصوت ماتورها يعلو. ظلّا متعلِّقين

بالصوت الذي صار يبتعد قليلًا قليلًا إلى أن تلاشى.

تحرَّك ذيب بعينين مطفأتين بالكاد بدأتا تعتادان العتمة. مدَّ يده تتحسَّس أقرب طاولة، نبَّهه سقوط شمعة كان قد وضعها هناك، مشى بأصابع يده وراء صوت سقوطها الناعم، أمسكَ بها، دسَّ يده في جيبه، أخرج علبة الكبريت، أشعل عودًا أعاد ضوؤه الهزيل النور إلى الدنيا، رأى وجه وجدان الخائف، ورأت هي ارتباكه.

«لقد اكتفيت، لا أريد قراءة المزيد»، قالت وهي تتثاءب.

لم يعلِّق.

- كم باقي على الفجر؟
- لقد انقضت الليلة.

مشى صوبها، ألقى بجسده على الكرسي المقابل لها بكلّ ثقله، عاد وانتصب فجأة وكأنه تذكر أمرًا مهمًّا:

- بقي شيء لم نفعله.

أمسكها بيدها وخرج بها من «الريفيرا». وقف لصقها أمام الدوّار، تقدَّم خطوة وهو لا يزال ممسكًا بها:

- ما رأيكِ أن أخذك في جولة ترين فيها معالم الدوّار الثالث؟ سأعرِّفك على الدوّار الذي تظلّين تراقبينه من خلف الزجاج، لكن بلا بشر ولا سيارات ومواكب ولا زواميز مزعجة، دوّار لنا: أنا وأنتِ والطريق وحسب.

سارت قربه وهي تسحب نفسًا عميقًا من هواء الغرب الذي كان يبعث

نسائم طريّة. فكَّرت بأنَّ كل ما حدث لها الليلة ليس حكاية، ولا حادثة، هي لحظة سوف تعرف ماذا كانت في ما بعد، بشرط أن تبقى مصدِّقة أنَّها حدثت معها حقيقة.

قطعا الشارع دون أن يلتفتا، لا زامور سيارة يجفلهما، ولا صوت مكابح، ولا شتيمة سائق متهوِّر تكسّر جمال مشوارهما. كان يشدّ على يدها بقوّة وهما يدنوان من سور «السفارة البريطانية» التي تلبَّستها العتمة مثل باقي البيوت.

لاحت نجمة من أقاصي السماء، كان ضوؤها يهتزّ على قمّة شجرة باسقة، كلّما حرّكت أغصانها ريح خفيفة، انبعث في روحيهما رحيق ساحر.

***

انقضت رحلتهما، كانا يحسّان فرحًا لا يشبه الانتصار، ولا الانعتاق من الخوف؛ بل كان يشبه الحبّ.

عادا إلى «الريفيرا» التي كانت مشتاقة لهما، أطلق يدها التي ظلَّت مأسورة لكفِّه طوال رحلتهما، ساقها إلى كرسيها برشاقة راقص فالس بارع. انحنى وبجرأة طبع قبلة على فمها. التقطتها بشَغَف. امتَزَجَ ريقهما فأضحى أكسير «جالجامش» الذي أفنى حياته بحثًا عنه.

ها هي واحدة من ليالي العمر تنقضي. ما كان قبلها، وما سيأتي بعدها للنسيان.

لقد حانت لحظة الاسترخاء. مدَّ ساقيه على طولهما، كتَّف يديه، أراح

عنقه على كتفه، وبدأ بسرعة في الشَّخير.

لم تجد ما تفعله. أتعب نور الشمعة الوحيدة المشتعلة عينيها. ظلَّت شاردة تترقَّب أن تعلن هذه الليلة عن نهايتها. لم يلُح الفجر بعد، أو قد يكون طلاء الأزرق النيلي قد كبح حضوره. تساءلت؛ ماذا بعد؟ لم تجد ردًّا على سؤالها في سبات ذاكرتها. صارت تتأمَّل وجه ذيب، رأته حزينًا حتى بدا وكأنَّهُ يبكي.

مشت الدقائق بطيئة لا تحمل معها سوى أفكار مُتعبة، وخيط ضوء ضعيف يندسُّ من تحت عقب الباب، وصوت شخير ذيب. وقَفَت، أحسَت بتيبُّس ساقيها، مشت بتثاقل صوب الباب. شقَّته بهدوء. نظَرَت إلى الخارج.

فضاء مُغبرّ يغطّي الكون.

عادت، كان قد تنبَّه على صوت حركتها، قال وهو يجبِّد ذراعيه:

- صباح الخير.
- طلع النهار.

أشرَعَت الباب للهواء القادم من الخارج. سرَّحت شعرها بأصابعها. لم تعُد معنيّة بمظهرها بعد أن تملَّكها إحساس ثقيل بأنَّه لا شيء جميل اليوم. مشت صوب الراديو، أدارته وهي عازمة على تغيير المحطّات التي صدعت رأسها بأغنياتها وبلاغاتها. فكَّرَت أن تفتِّش عن إذاعة لا يُبثُّ منها شيء يُذكِّر بالحرب. تصلَّبت أصابعها فوق المفتاح قبل أن تمضي برحلة البحث، عندما سمعت صوتًا ناعمًا تحبُّه كثيرًا.

«يا الله هذا صوت «شادية»! ماذا جرى للدنيا في ليلة واحدة؟!»:

«قولوا لعين الشمس ما تحماشي.

لحسن حبيب القلب صابح ماشي».

أوَّل ما تبادر لذهنها أنَّها إذاعة لندن الـ«بي بي سي». أبقت المؤشر على رقم الإذاعة، أسرع ذيب يتبيَّن الجهة التي تُبثُّ منها الأغنية، دقَّق النَّظر بالمؤشِّر، هي الإذاعة ذاتها التي كانت تنقل أخبار المعارك طوال يوم أمس.

ظلّا مشدودين لسماع الأغنية وكلّ منهما يبحث في سرِّه عن تفسير لهذه القَلْبة المفاجئة في الراديو، لم ينطقا بكلمة. بقيا مصغيين بدهشة، وظلَّت «شادية» تُلحُّ بطلبها المستحيل. انتظرا أن تكفَّ عن السؤال لكي يفهما ما يسمعانه. طالت الأغنية، وكأنَّها تحوَّلت لتصير واحدة من أغنيات «أم كلثوم» التي تساهر العشاق.

(قولوا لعين الشمس ما تحماشي أحسن حبيب القلب صابح ماشي

ماشي حبيبي ماشي ماشي بكرة ماشي

يا حمام طير قبله قوام يا حمام خلّي له الشمس حرير يا حمام

ويا ناس لو غاب يا ناس خلّوه يبعتلي سلام

دي الآه بقولها وهو ما يدراشي وف بُعده طعم الدنيا ما يحلاشي

قولوا لعين الشمس ما تحماشي

لا حنام أيام ولا حتى أشوف أحلام

أيام وازّاي لو غاب حتفوت الأيام

ويا ناس لو غاب يا ناس خلّوه يبعتلي سلام
آه يا ناس مطرح خطاويه ما تروح
قسوة بحنان قسوة وادّو له الروح
دي الآه بقولها وهو ما يدراشي وف بُعده طعم الدنيا ما يحلاشي
قولوا لعين الشمس ما تحماشي).

أخيرًا ملَّت «شادية»، وسكَتَت عن الغناء، جاء بعدها صوتٌ غريبٌ لمذيع يقول:

«استمعتُم إلى شادية في أغنية «قولوا لعين الشمس»، من دار الإذاعة الإسرائيليّة في أورشليم، القدس، بعد أن انضمَّت لموجاتنا العاملة صباح هذا اليوم».

انهار ذيب في مكانه. لُجمت وجدان حارت بما تفعله. أعادت إطفاء الراديو. سارت صوب حقيبتها، تناولتها، ومَضَت خارجة، دون أن تلتفت وراءها.

***

في اليوم السابع..

بعد ستّة أيام من تلك الليلة، وما إن غادر آخر زبون «الريفيرا» مبكّرًا، أغلق ذيب باب الزجاج بالمفتاح. انسحب إلى الداخل، أطفأ الأضواء كلها. انسلَّ إلى جحره. خلع ملابسه باستثناء لباسه الداخليّ. جلس على السرير، سحب من الدرج قلمًا وعددًا من الدفاتر، انتقى واحدًا بغلافٍ ورديّ مرسوم عليه بلا إتقان صورة تقليديّة لِـ«روميو وجوليت». قصَّ منه

ورقة. اتَّكأ بكلِّه على المنضدة، أحنى رأسه حتى كاد يعانق الورقة أو يقبّلها؛ ابتدأ الكتابة:

(عزيزي ذيب

لقد عرفتكَ الليلة أكثر. لم أكُن لأتخيَّل بأنّني ما زلتُ قادرة على الوقوع في الحُبّ.

لقد كسرتَ تخيُّلي، وجعلتني أحبُّكَ.

المخلصة

وجدان).

وسكتا عن الكلام.